دليل المحتار
بين
اليَنّ و الدّولار

دليل المحتار

بين

اليَنّ و الدّولار

قِصّة المَال العَربي بِقالب كارِيكاتوري

د. غسان قلعاوي
ماجستير في التحليل المالي
دكتوراه في التحليل الاقتصادي وتقويم الأداء

الطبعة الأولى

١٤١٥ هـ ـ ١٩٩٥ م

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع أو إخراج هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من أشكال الطباعة أوالنسخ أو التصوير أو الترجمة أو التسجيل المرئي والمسموع أو الاختزان بالحاسبات الالكترونية وغيرها من الحقوق إلا بإذن مكتوب من دار المكتبي بدمشق

دار المكتبي للطباعة والنشر والتوزيع

سورية ـ دمشق ـ حلبوني ـ جادة ابن سينا

ص. ب. ٣١٤٢٦ هاتف ٢٢٤٨٤٣٣ فاكس ٢٢٤٨٤٣٢

مقدمة

ما عدت أذكر من مقامات بديع الزمان التي كانت بعضاً من مقرر اللغة العربية في ثانويتنا العامة «أيام زمان» إلا قوله:

«اشتهيت الازاذ وأنا ببغداذ...، وليس معي عقد على نقد...».

وقوله على لسان الإعرابي الذي استطاع أن يستدرجه ليأكل وجبة من الشواء على حسابه:

«كم قلت لذلك القريد أنا أبو زيد وهو يقول أنت أبو عبيد...» أو قريباً من هذا القول...

قد نكون درسنا المقامات باعتبارها نموذجاً لأدب الزخرفة اللفظية...

لكن يبدو أنني قد اختزنت من ذكراها ملامح العرض الساخر لبعض المواقف لذلك فقد وجدت القلم ينساب معتمداً هذا الأسلوب في طرح بعض جوانب المعاناة والإحباط في قضيتي المال والتنمية في الوطن العربي...

كان ذلك خروجاً عن مألوف ما أثارته هذه القضية من دراسات جادة مشفوعة بالإحصائيات والأرقام والتوصيات بعد أن أضحت مثل تلك الدراسات مصدراً للمزيد من المعاناة والإحباط، لا بسبب جديتها وموضوعيتها، أو التزامها وحرصها، ولكن بسبب الإمعان في تجاهلها والإصرار على إهمالها...

بدأت هذه المقامات على شكل مقالات متفرقة ثم تطورت، مع تطور وغنى وتسارع الأحداث التي تقود من تثبيط إلى إحباط، إلى «مشروع حكاية» مع الاعتذار لقصاصينا الكرام...

مشروع حكاية تحاول أن تهمس شيئاً في وجه دوامة الصخب الكبير... أو تدرب القلم على العوم ضد التيار الجارف...

على كل حال، إنها «فشة قلب» في زمن غدونا فيه بمسيس الحاجة إلى الكثير من «فشات القلب» والضحك على الذات...!

عذراً لمن توقع مني بحثاً علمياً حول الاستثمار في الين والدولار...

أرجو ألا أكون قد خيبت ظنه في دعوته لشيء من الابتسام مع هذه السطور... شريطة أن يذكر دائماً:

«إن من البلية ما قد يضحك»...

أبوظبي في ١٦/٤/١٩٩٤

المؤلف

حيرة النفوس

في

مسألة الفلوس

حدثنا ابن عربان قال:

«بعد أن طَوّفْتُ في ربوع الشام وأرض الكنانة.. ومررت بتخوم لخم وغسان.. ونجود الأزد وعدنان.. وَصلْتُ أطراف الجزيرة، ونزلت سعة ورحباً في ديار الكرام...

وفي أمسية من أماسي المجالس العامرة... سمعت واحداً ممن سبقني في الوفود إلى هذه الديار ويدعى (أبا العيال)، يحدث صاحبه المكنّى بـ(أبي الهول).. ويقول:

«أكرمنا الله بالعمل في ربوع هذه الأرض الطيبة، فاستبدلنا غربتنا أنساً.. وضيقنا يسراً..

وحمدنا الله حمد من يدرك أنه مهما عَظُمَ الحمد والشكر فإنه لا يعدل ذرة من محيط النعم التي غمرنا بها فضل الخالق العظيم...

طِبْنا نفساً فيها ونحن نرقب العيال ينعمون بالطيبات.. يكبرون..، ويمرحون على سندس الشواطىء.. يتعارفون..، ويحلمون بالخيرات...

وازدادت نفوسنا طيباً مع سخاء هذه الديار.. الذي أبقى لدينا، فوق ما ننفق وننعم، فلسين من ادخار.. ينفعان في مقبل آت.. لا نعلم ما تخبئه لنا فيه الأقدار...»»

وأردف ابن عربان قائلاً:

«ثم سمعت أخانا أبا العيال يذكّر صاحبه أبا الهول في ذلك المجلس فيقول:

«وقد نصحتني يومها أن أشفع ادّخاري استثماراً فالادخار دون استثمار ـ كما شرحت لي ـ يدخل في نطاق الاكتناز المكروه، الذي يحرم الناس حقوقهم في تحريك المال ودورة الأعمال.. فضلاً عن أنه ـ قبل ذلك ـ سبب تآكل الفلوس وحسرة النفوس..

ثم بَيّنْتَ لي أن خير استثمار هو ما استقر في الأوطان.. دفعاً لغائلة الزمان..

وتمهيداً لعودة ترجى عندما يأذن الله ويحل الأوان..

وقد أقنعني رأيك السديد، وقمت أعمل بنصحك الرشيد..

حملت الفلسين إلى الديار..
وفي المطار.. بعد طول انتظار..
وحوار لم أبخل فيه ببيان حسن القصد والنية في إدخال المال قصد الاستثمار..
أعقبه اتصال.. ثم حوار.. ثم اتصال.. فحوار
فهمت أن إدخال الفلوس للأوطان ـ رغم حسن النوايا وطيب النفوس ـ لا يجوز إلا بعد اجتياز الفلوس حواجز معادلات صعبة للعملات الصعبة..

معادلات لا دخل فيها لحسن النوايا، ولا لنبل القصد أو صدق الطوايا..
فانصعت للمطلوب، وفوضت أمري لله ولقوانين الوطن، وقلت في نفسي إن أهل الديار أدرى باقتصاد الديار وبمصالحه الخاصة والعامة..
رغم أن تلك القوانين قد بدت لي وكأنها في وضع مقلوب لما شرحته لي عن أساليب ترغيب المال ونظم حسن الاستقبال، وفنون الدعوة للتمويل.. لدفع عجلات النماء، ورفع معدلات الرخاء..

توكلت على الله، ودخلت في دوامة المعادلات الصعبة في سبيل إدخال عملتي الصعبة..

وأمضيت إجازة كنت أطمح قضاءها في راحة واسترخاء: لفاً ودوراناً واستجداء..
من مكتب لمكتب، ومن دائرة لدائرة فيها: المال والاقتصاد.. الداخلية والخارجية.. الأمن والجمارك.. وبنوك مركزية وأخرى تجارية..

وتمت ـ بعون الله ـ عملية التحويل والإدخال.. تحويل وإدخال المال..

ولا أخفيك أن ذلك قد اقتضى التضحية ببعض من ذلك المال أثناء حشره حشراً، ودفعه دفعاً، في دهاليز المعادلات الملتوية التي تزداد ضيقاً بعد ضيق إن لم يُزَكَّ فيها مرور المال، بمراسم خاصة تبذل فيها النذور ويطلق البخور..

وبعد عناء ونصب، ثم وضع الفلسين في استثمار مضمون، بعقد مأمون، هان معه العناء والكبد.. ففي سبيل الوطن وأهل الوطن والديار يهون الجهد ويرخص المال..

وتَنَسَّمْتُ بعدها راحة البال.. وأخذت أعقد كل كبير من الآمال.. وعدت أنعم بخير الحاضر ومنى المستقبل الأمين بإذن من بيده نعمة اللطف والأمان».

قال ابن عربان:

«وبعدها سمعت أبا العيال يقول لصاحبه بحسرة واضحة تنم عنها نبرات حديثة:

«وما مرت ستتان وبضعة شهور حتى غدا الفلسان في الديار فلساً وخسرنا في استثمارنا النصفا

فعدت إليك أستوضحك ـ عما أصاب الفلوس من تدنٍ فاحش ونقص ملموس؟؟

فشرحت لي ـ وأساك ظاهر وواضح ـ أنني قد وقعت ضحية ما يدعى بالتضخم أو تدني قيمة النقود..

وأردفت مواسياً بأنني لست الوحيد من ضحايا هذه الظاهرة اللعينة، فهي آفة العصر ووباؤه، وسر تعاسته وشقائه..

وإنها الوجه الآخر لما يسود عالم اليوم من ظلم الربا والعياذ بالله..

وأنني رغم بعد استثماري عن مجالات الربا فقد أصابني غباره، مصداقاً لنبوة رسولنا المصطفى عن هذا الزمان الأغبر.. زمن الردة والعقوق.. عصر التخبط والفسوق..

وعندما استفتيتك عن مخرج من هذه الورطة.. وما إذا كان لي فيما آل إليه الأمر علاجاً ينفع أو شفاعة تشفع..

فهمت منك أن ليس لي إلا أن أطلب من الله الذي لا حول ولا قوة إلا به، العوض فيما فات والرجاء بما هو آت..

ونصحتني أن أُخرج من الأوطان ما بقي من الفلسين إن استطعت لها إخراجا..

قبل أن يقضي استمرار التضخم في الأسعار، والانهيار في عملة الديار على البقية الباقية منها..

وأملتني بأن نجد لهذه البقية الباقية من الفلسين ـ إن استطعت لها إخراجاً كما استطعت إدخالاً ـ مجالاً آخر للاستثمار أكثر استقراراً وأوفر ضماناً.. أجزل ربحاً وأدعى أماناً.. فنعوض بذلك ما أصابنا من خسران مع مبدأ الحرص على الاستثمار في الأوطان..

وقد وعدتني ببحث الأمر بجد ونشاط، بعد استجلاء للبيانات، وتقص للمعلومات.. واستخارة الأجهزة والحاسبات.. وسؤال أهل العلم والخبرة بالتنبؤات وأحوال البورصات..

أما أنا فقد رحت أسعى لإخراج ما بقي من الفلوس قبل أن تؤول إلى قرار ذلك المصير المنحوس..

قبل أن يطويها التضخم بردائه وتأكلها آفة العصر وسر بلائه..

عليّ أنتفع بما يسفر عنه استقصاؤك من أمل ورجاء يعوض ما أصاب أكثر من نصف الفلوس المستثمرة في الأوطان من هذا البلاء».

خيبة الامال

في

الحبيب الغالي

حدثنا ابن عربان قال:

«وفي جلسة أخرى
سمعت أخانا أبا العيال.. صاحب نحس الاستثمار في الديار..
يعود للحديث إلى صاحبه أبي الهول..
مذكراً إياه بما حدث في ذلك الحين فيقول:

«استطعت، مستعيناً بقدرة القادر.. إخراج ما بقي من الفلسين بعد استثمار في الوطن خاب فيه الرجاء.. وتحملت فيه من العناء كل العناء..

استعدت ما بقي من الفلوس، وهو أقل من النصف بعدة فلوس، بعد أن اقتنعت من الغنيمة بالإياب.. قبل أن يستفحل الداء، داء التضخم اللعين، آفة العصر وسر البلاء.. فيقضي على تلك البقية الباقية مما كدحت في ادخاره ونويت استثماره..

لقد اخترت أن أستثمر في الأوطان..
وهو اختيار حق يفكر فيه كل إنسان..

فالوطن حبيب وغال.. منه الأصل وإليه المآل..

ولكن ماذا يقال.. وكيف يقال..؟؟

يا لخيبة الأمل في كل غال:. فهي أقسى على النفس من كل قسوة.. وأصعب على الروح من كل صعب..

ما بال هذه الأوطان تزداد ضيقاً وعسراً.. تُهجِّر الرجال والأموال.. وتتدنى فيها قيمة الفلوس حتى أعشار الفلوس..

ما بال هذه الأوطان تحطم الآمال وتُخلِّف الخيبة في كل النفوس..؟؟».

قال ابن عربان:

«وهُنا، ومع اشتداد اليأس بأبي العيال تدخل أبو الهول في الحديث مقاطعاً

ومطمئناً ليقول:

«عوضك على الله يا صاحبي فيما أصابك، فقد أصاب سواك ما أصابك..

هوّن عليك.. فقد استفتيت لك كل خبير، وأحصيت لك كل ما قيل في أحدث ما توصل إليه فن البورصات فأبشر بالعوض عما فات باستثمار جزيل الربح.. وافر الضمان.. أكيد الثبات..».

وأردف أبو الهول يقول:

«ولكنك تتساءل عما أصاب بعض أوطاننا من سوء حال،
وندرة في المال، وهروب للرجال..
وتدهور في الفلوس.. وخيبة في النفوس..
وهذا والله سؤال يفتق الجروح.. وينفث القروح..!!

الحديث عنه يطول ففيه ألف قول وقول...!

إنها حالُنا..
حال من تخلف من الناس فأضحى كالقصعة الشهية أو كالمنسف العامر الذي تنهش منه الصفوة المتقدمة من الأمم من كل جانب.. ويقضم منه كل عابر..
فتزداد الصفوة تخمة ويسراً.. ويزداد المتخلفون جوعاً وعسراً..

إلا أننا ـ فوق ما يصيب كل المتخلفين من أمثالنا ـ نمتاز بتخلف خاص وفريد..!!
أدمناه إدمانا.. وأتقنا فنونه إتقانا..
حتى غدونا بهذا الإدمان.. وذاك الإتقان.. مضرب الأمثال وفرجة الأجيال..!!

فنحن أوطان تاهت في اشتراكيات لا إشتراكية فيها وضاعت في انفتاح ساحت فيه المعالم حتى غدا سبيلاً لكل عابر ومرتعاً لكل مغامر..!!

أوطان تدخل إليها الثروات من أضيق الأبواب حيناً.. ومن أوسع الأبواب

حيانا..
الكنها تُظَهَّرُ لبلاد بعيدة كما تُظَهَّرُ الشيكات..
أوطان أغرقت نفسها في فتن وقلاقل.. نزاعات ومشاكل..

ثورات لا ندري على من تثور.. وانقلابات تنقلب على نفسها، وحروب لا نفهم لِمَ وعلى من تدور..!!
وحدات واتحادات لا تقوم إلا لتنفصل أو تنفصم وتختصم...!!

أوطان تعجز عن الإختراع، لكنها تخترع مفاهيم جديدة للأمن والمخابرات.. تصمم لها الدهاليز والأقبية.. ووسائل التعذيب والملفات..

أوطان تعجز عن إنتاج الغذاء والكساء.. ولكنها تنتج «الميليشيات» التي تبحث عن سبب إنتاجها وعن معارك تقتتل فيها..
فإن لم تجد من تقاتله، انشطرت كانشطار خلايا الأورام الخبيثة وأمعنت في بعضها وفي من حولها قتلاً وتنكيلاً وتشريداً..!!

أوطان غدت طواحين سلاح وذخائر.. تطحن الثروات طحناً، وتذروها هباء لا طائل منه ولا حائل..
وبين هذا وذاك وذاك.. وفي ظل المكابدة والعناء، تطل على هذه الأوطان وفرة سخية حائرة، تدعم فلا ينفع الدعم.. وتعين فيضيع العون..

وتحاول الاستثمار أملاً في نماء متبادل ورخاء عادل وشامل..

تهادن الاشتراكيات.. وتساير الإنفتاحات.. تستنكر الحروب، وتتجنب الفتن والقلاقل..

تحذر من الثورات.. وتبتعد عن الإنقلابات.. وتستجيب لمتطلبات أنظمة الأمن التي لا أمن فيها..

لكنها ـ رغم كل ذلك ـ لا تفلح في إصلاح الحال، ولا تنجُ من شرائع الإخراج والإدخال.. ولا تخلص من الإبتزاز والاحتيال.. ولا من الغوص في مستنقع

المعادلات الصعبة للعملات الصعبة..

أو من الضياع في متاهة الدهاليز الملتوية الضيقة التي لا تجتازها العملات والمعاملات إلا بأداء ما يلزم من أتاوات وعمولات، تحت سمع وبصر أعلى الهيئات.. وفي ظل رعاية أعتى نظم تشجيع وضمان الاستثمار..

هيئات ونظم مغلفة باتفاقيات ورقية هشة.. خاضعة لإشراف ورقابة منظمات عاجية رثة.. هي في وادٍ وأوضاع الأوطان في واد..!

وفي ظل هذا الواقع الكؤود.. تمتد أيادٍ ناعمة معسولة الوعود.. تحتضن الوفرة الحائرة وتسحبها إلى أبعد البعيد..
إلى حيث مرابع استثمار تضيع فيه الفلوس.. «عيني عينك وعلى المكشوف».
ولكنها مرابع استثمار عذب رقيق، كعذوبة الألحان والأغاني.. ورقة عيون الغواني..

استثمار فيه زينات وحدائق.. مؤتمرات وفنادق.. مخامل ونمارق.. وكلام عذب.. ووجوه باشة هاشة..

وموائد خضراء تدعى الأسواق المالية.. وشاشات عقود آجلة وآنية.. تنقلب فيها الثروات إلى صكوك وأوراق.. لا تغني ولا تسمن من جوع..

وحرية مزعومة للدخول والإدخال، والخروج والإخراج تحصد الأموال حصدا..

ومرونة منشارية للصعود والهبوط في الأثمان والفوائد تأكل الثروات أكلاً..

وتخسر الوفرة الحائرة..!!
ولكنك ـ إن شئت الحقيقة والواقع لا الخيال أو المثال:.
فخيرت خاسراً بين أن يخسر مكابداً.. أو أن يخسر مرتاحاً..
لاختار الخسارة دون عناء..
فهذا منطق المصيب واختيار الأريب..!!

وهكذا كان..!!

ولا ندري هل اختارت الأوطان سوء الحال ليهرب المال..؟؟
أم أن سوء الحال كان قصد ومطلب الصفوة المتقدمة في هذا المجال.. لتستأثر بالمال..؟؟
فأحكمت التخطيط واستغلت الغفلة والجهالة حتى آل الأمر إلى ما آل..؟؟
العلم عند الله يا أبا العيال...».

وأردف أبو الهول يقول:

«تلك هي الحال يا صاح
وقد ظلمتك بحسن قصد حين نصحتك بالاستثمار في الأوطان..
دفعني لذلك ولاء لا بد منه مهما ساء الحال.. وقصد لا مهرب منه أياً كان المآل..

ولكن لا عليك..
فقد قضينا حق الأوطان علينا.. وعلينا الآن أن نبحث عن العوض فيما أديناه حقاً للأوطان..
وقد خبرت لك مجالاً ثميناً لاستثمار ثمين.. في معدن مضمون..
نبلغ فيه المراد ونحقق الأرب..
وذلك في معدن الفضة والأفضل منه عقود الذهب».

* * *

بلوغ الأرب

في

عقود الذهب

قال ابن عربان:

«وفي لقاء آخر.. بعد أيام.. جلس أخونا أبو العيال مع صاحبه أبي الهول، يُفضي إليه، ويُذَكِّرهُ بما حدث بعد ذلك في ذاك الحين فيقول:

«بعد تلك الحيرة في استثمار الفلسين.. وما أصابنا من خيبة وخسارة مع الاستثمار في الأوطان.. أكدت لي في ذلك الحين.. أن خير مجال لأمثالنا من صغار المستثمرين أن نلجأ للذهب..

هذا المعدن الوهاج، الذي بقي على مر العصور، قبلة المحتاج وغير المحتاج..

فهو أصيل أصالة أعرق العروق.. وفيٌّ وفاء الصديق الصدوق..

نادر ندرة الحق يقال في زمن يسوده الباطل..

مصادره محدودة.. ومناجمه معدودة..

بعض منتجيه يحتاج القمح.. وبعضهم يستهدف الربح..

وهو بين هؤلاء وهؤلاء، يقف في الأسواق ثابتاً مستقراً مضطرد الارتفاع..

لا يتذبذب تذبذب أسعار السلع الأخرى، ولا ينهار انهيار أوراق النقد التي تساقط تساقط أوراق الخريف.. مع كل نفخة من نفخات هذا النظام الاقتصادي الضعيف..

ولا كأسعار النفط الذي لم يهتدِ أصحابه إلى قرار.. ولم يصطلحوا على مبدأ أو معيار..

فالذهب يزداد عزاً كلما ازدادت الأحوال سوءاً.. ويسطع بريقاً ورصفاً كلما عصفت الفتن عصفاً.. فهو المنقذ في الأزمات.. المعين في الثورات.. المعيل في الحروب والنائبات..

لا يصيبه غبار العجز المالي...، ولا يسوده التضخم العالي...

وهو خير أنيس لمن يخشى المغامرة والتدليس...

كما أن فيه العوض للخاسرين من أمثالنا ممن يحق لهم العوض.. عن خسارة نجمت عن حسن النوايا وطيب الغرض.. في استثمار خيب الآمال في الوطن الغالي....

وأردف أبو العيال يحدث صاحبه أبا الهول فيقول:

«وأذكر أنني عندما سألتك عما إذا كان لجوؤنا لهذا الذهب المحترم سيوقعنا في مغبة الإكتناز المحرّم..؟

سخرت من أميتي الاستثمارية، وبينت لي أن اللجوء لهذا المعدن المختار لن يكون باقتنائه عيناً، وكنزه في حرز أمين...، فذاك سوق التحلي بهذا المعدن الثمين.....

وهو سوق يصلح للمتحلين من النساء لا للمستثمرين من الرجال... وأرباب الأعمال....

كما أفهمتني أن سوق التحلي بالذهب..، سوق لا ربح فيه ولا مكسب...!!

إلا لأصحاب الحرفة من الصاغة....

الذين لهم أسعارهم الخاصة.....

وهي أسعار لا تستجيب لمؤشرات السوق إلا ارتفاعاً في حال الشراء منهم أو انخفاضاً في حال البيع إليهم.... أو الاستبدال منهم...

أما سوق الأعمال لأمثالنا من رجال المال فهو سوق العقود...، عقود الذهب...، فهي المجال المقصود....

تشتري فيها وتبيع في الحال أو بعد حين...، فتقتني الذهب دون أن تراه.....

وتتمتع بأرباحه دون أن تبذل جهداً في حمله... أو تتحمل عناء في نقله... أو حيرة وقلقاً في حفظه وخزنه...

تتعاقد على الشراء ثم تبيع...، أو تتعاقد على أن تشتري بعدما تبيع... أو أن تبيع قبل أن تشتري..!! أو أن تشتري معاً وتبيع...!!

عقود ميسرة، وتعامل سمح، وبدائل مطروحة، في سوق مفتوحة... يحدد

فيها الأسعار طلب وعرض أمين، وتداول حر متين، وهوامش تضفي على السوق إغراء...، وفرص متاحة للقبول...، وأسعار في صعود دون نزول...، فنجم الذهب لمّاع دون أفول...

لذلك كان علينا ـ في رأيك ـ أن نلحق قبل فوات الأوان...، ونغرف من بحر الأرباح دون توان...!!

وأصارحك الآن بأنني ـ رغم أميتي الاستثمارية ـ لم أرتح لمثل هذا النوع من الاستثمار الذي أدفع فيه المال نظير ورق مكتوب وشهادات مطبوعة بمداد أغلى من أغلى الذهب...

فأنا ـ رغم أميتي في هذا المجال ـ أفهم أن التداول في دنيا الأعمال، يقوم على أساس مبادلة قيمة بقيمة، وثروة بثروة، ونفقة بمنفعة أما دفع الفلوس في ورق مدسوس.... وقرطاس منقوش أو شهادات مزركشة فقد كان من البدع التي لم أفهمها ولم أرتح إليها....
ولكني لم أجد بداً من الاقتداء بك، فأنت الخبير في هذا المجال، وأنا لا أفهم في مسألة المال.، ولا في دنيا الأعمال....

لذلك فقد اتكلنا على الله ورحنا نبحث في مكاتب الأوفشور وبيوت التمويل والاستثمار عن أصغر العقود حجماً لنكتتب بها اسماً...
وبعد طول بحث وعناء...، وتضرع ورجاء...، وتحمل نظرات العطف والرثاء لضآلة ما نمثله من ثراء نظير ما نطمح إليه من تطاول على مقام الذهب الثمين.... قَبِلَ البعضُ التعامل معنا على مضض، فدخلنا بذلك عالم المستثمرين الكبار... ورحنا نتابع الأخبار...

نُقلب الصحف المحلية والأجنبية....
ونقرأ النشرات الإقليمية والدولية....
نُفسر الأقاويل...، ونؤول التآويل....
نعلق على التعليقات..، ونحلل التحليل...

نتقصى المطالعات ونحاول فهم الدورات والتنبؤات..
وقد كانت كل الأحوال مطمئنة «والأشيا معدن»..

فالأنباء والتنبؤات كانت تؤكد أن المعدن الأصفر قد طار وحلق.. ثم حلق وطار...، وأن الأقية منه ستتجاوز الألف دولار...!!

وتمنينا لو أن لدينا من الفلوس أضعاف ما كان لدينا فألقيناه في حِمى الذهب الغالي، مع أسعاره الطائحة في العلالي...
وأسفنا على ما كان لنا من استثمار في الأوطان ضاع فيه من مالنا نصف ما كان...
وما زالت أسعار الذهب تطلع وتطلع..، ونحن لا نصدق ما نرى ونسمع..

وحلقنا مع الذهب فوق أجنحة الآمال...
وأخذنا نُمني النفس بكل طيب، عزيز..، وغال..
وطالت أحلامنا النجوم...، وخرجنا من دوامة الهموم...
ونعمنا برفيف الأمنيات مع طيوف أرباح الغد الآت...

وما هي إلا أسابيع قليلة حتى أطلت علينا الأخبار، صبيحة أحد الأيام، تُلمح إلى أن الذهب المحلق في الأعالي قد ترنح ومال، كمن أصابته ضربة شمس أو لفحة ريح...
وتابع أبو العيال محدثاً صاحبه يقول:
وأسرعت إليك أسأل عما أصاب معدننا الرصين...، فطمأنتني ـ حينها ـ موضحاً بأن ما أصاب ذهبنا الغالي لا يعدو أن يكون عارضاً موقوتاً لن يلبث بعده أن يزداد ثباتاً ويمعن في إثره صعوداً... وأضفت أن خبرتك في الأسواق قد علمتك سر هذا التذبذب المرصود الذي يسبق الإمعان في الصعود...!!

فتعلقنا بقشة من الأمل...، وجلسنا نرقب ونزيد من المتابعة دون ملل....
ولكن ترنح الذهب ما لبث أن أضحى ـ بعد أيام ـ سقوطاً نفاثاً، ازداد المستثمرون في متابعته هماً ومساً ولهاثاً..

وفي غمرة السقوط قمنا نبحث ـ هنا وهناك ـ علّنا نجد لحالنا إنقاذاً. . .
نقرع الأبواب. .، ونوسط الأصحاب. . .، ونرجو، في مكاتب وبيوت الاستثمار، أكبر الأرباب. . . .
ولكنا فهمنا أن الذهب المعقود لا يباع إلا في الأجل الموعود. . .، وأن البيع في الحال يأكل نصف المال. . .، فأخذنا نضرب كفاً بكف. . .، ونندب سوء المآل. .، وأسعار الذهب تتجاوز في هبوطها نصف الألف. . . .

وما حان الأجل، أجل العقود، حتى كان الأمل قد ضاع في الذهب المعبود. .، وكنا قد خسرنا في معدننا الثمين نصف ما دفعناه قبل حين. . .!!

ثم أردف أبو العيال مخاطباً صاحبه أبا الهول:
«وَعُدْتُ إليك، أسألك وأستفتيك، عن سر هذا الإنقلاب الخطير، في جوهر الذهب الغالي على مر العصور. . .
فعلمت منك ـ في ذلك الحين ـ أننا قد وقعنا في شرك ما يدعى بأزمة الفوائض ـ فوائض النفط التي تضخمت تضخماً لم تعد تتحمله بطون الصفوة المتقدمة من الدول. .، وضاقت عن استيعابه أجهزة المال ومجالات الاستثمار فيها، فخشيت أن تعود تلك الفوائض للأوطان فيتوفر لها حسن النوايا والصدق والإخلاص في الطوايا. . . .
فتبدأ بها عجلة نماء حقيقي بالدوران. . . وهو نماء تكره الصفوة المتقدمة من الدول تباشير دورانه كراهية التحريم. . . .
أو أن تعود تلك الفوائض لتستخدم في إنتاج ما يلزم من قوت. . . .
وهو إنتاج تحاربه الصفوة المتقدمة حتى الموت.

لذلك فما كان من تلك الصفوة إلا أن اخترعت لعبة الذهب، وأوهمت العالم بأنه الملاذ الأمين في عصر القلاقل الملعون. . .
فانقاد أصحاب الفوائض انقياد القطيع نحو المذبح، يلمع في ساحته بريق الذهب الثمين ويسطع. .
فاشتروا بالفوائض الذهب بألف ثم باعوه بالنصف. .

وأكلت الصفوة المتقدمة نصف الفوائض في هذه اللعبة التي لم تكلفها سوى طبع عقود ورقية...
وتلفيق أخبار مطلية...
وتوزيع أنباء مرئية...
وحسن إخراج المسرحية...
المسرحية التي ارتفعت فيها أسعار الذهب ارتفاعاً مجنوناً باسم العرض والطلب الحر....
ثم ما لبثت ـ تلك الأسعار ـ أن هبطت هبوط الطائرة الورقية، يلعب بها الأطفال، باسم العرض والطلب الحر...!!
وبين الصعود والهبوط، أكلت الصفوة المتقدمة من الدول، نصف الفوائض من قصعتنا الذهبية ومنسفنا العامر...
فلا حول ولا قوة إلا بالله
وما عليك يا صاح إلا أن تطلب العوض ممن عليه العوض

* * *

لسعة الأرباح

من

سياط الإنفتاح

حدثنا ابن عربان قال:

«وفي مجلس آخر من مجالس الكرام ـ بعد أيام ـ سمعت أخانا أبا العيال..، يكمل حديثه لصاحبه أبا الهول فيقول:

«بعد نصائحك التي كَبَّدَتْنا الخسائر، ودارت علينا فيها الدوائر، في استثمار أكله التضخم في الأوطان...، واكتتاب في عقود الذهب بأعلى الأثمان رحنا فيه ضحية لعبة الكبار المتخمين.... آليت على نفسي ألا ألدغ من جحرك مرتين...، فابتعدت عن نصائحك الثمان..، ولكن ابتعادي كان إلى حين.....

فقد كنت قد زرعت في نفسي حب الاستثمار، وعودتني عادة رجال الأعمال...

فطفقت ـ وحدي ـ أستطلع الأخبار وأتقصى الأحوال..

وكان مما يشاع في ذلك الحين، أن عهود الإنفتاح قد تمخضت عن شركات للإستثمار الحلال، جزيل الأرباح، مضمون المال...، تستثمر فيه الأموال الدولارية في مشاريع محلية...!!

فقلت عسى أن يكون العوض لنا في هذا المضمار... عما لحقنا من خسائر فيما سبق لنا من الاستثمار..

وشرعت أسعى للحصول على فسحة من تمويل في هذا الحقل الجزيل....

وما كان الأمر يحتاج كثير بحث أو استقصاء، فقد كان صيت شركة «زعزوعة الحرة للاستثمار الحلال» قد طبق الآفاق...

فهي أكبر الشركات العاملة في هذا المجال، تتحدث عن نشاطها المتعدد الأشكال كل الصحف والأخبار...

وتصدر النشرات في وصف ما تمارس من ألوان الاستثمار...

وتمهر ميزانياتها وحساباتها المنشورة من قبل كبار المفتشين الذين لا يبخلون بالشهادة عن سلامة الأموال... وجزالة الأرباح... ومتانة الأحوال....

شركة قابضة لمجموعة متعددة من الشركات التابعة التي لم تترك مجالاً إلا ودخلت فيه ولا نشاطاً إلا وامتدت إليه مساهمة أو مشاركة أو تسليفاً:
عمارات سكنية..، أبراج علية..، صناعات غذائية وأخرى كسائية وثالثة دوائية....، طبابة ومستشفيات...، مصانع ومزارع...، سياحة وخدمات....

ومع هذا الزخم في الأعمال... وسعة النشاط ووفرة الأموال... عقدتُ على زعزوعة كل الآمال.. فحولت لها ما بقي لي من فلوس...

وما انقضت شهور ثلاث..، حتى أعاد لي البريد ـ مع الشكر والتقدير ـ خطاب تحويل يفيد أن الشركة المذكورة قد حولت لحسابي أرباحاً تتجاوز الفوائد أضعافاً....

فتوجهت بكتاب شكر رقيق، إلى إدارة شركة «زعزوعة الحرة» أشيد بجهودها الخيرة..، وأبارك نشاطها الميمون..

وأسفت على ما سبق لي من سماع نصحك الذي أوقعنا في كل ضيق....
وكاد أن يضيع علينا جنى العمر من نتاج الكد العريق...
فَهُنا، مع زعزوعة الحرة، يطيب استثمار المال، ويعود بالربح الحلال، فيهدأ البال، وتزدان الأحلام، وتنعقد الآمال...

ولبثت فوق العامين، والأرباح تحول لحسابي بانتظام...، تتجاوز في المائة العشرين...

وما زال زعزوعة يزداد انتشاراً، وتتسع أعماله اقتداراً..، وتناقل الصحف عنه الأخبار...، حتى غدا قطباً من أقطاب التنمية والاقتصاد يشار إليه بالبنان، وظاهرة من ظواهر هذا العصر والأوان... ورجلاً من رجالات الأمة ممن يشهد الزمان لهم بالجهد المثمر والإحسان....
وأخذت شهرة «زعزوعة» المحلية تنتشر وتمتد وتأخذ أبعاداً دولية...
فانتقلت مجالسه وإداراته إلى جنيف ولندن، وتشعبت أذرع استثماراته حتى

غزت مدغشقر وبنما، قبرص وروما، أوغندا والبهاما. . . .

وبعد طول انتشار. .، وسعة واقتدار. . .، كان فيها «زعزوعة» حديث السمار. .، في الليل والنهار. . .
اختفى زعزوعة الكبير اختفاء القمر في ليلة المحاق. .
واختفت مع زعزوعة الكبير كل استثماراته المحلية والدولية مما اتسع أو ضاق. .
كالملح تسقيه الماء صبت كلها في حسابات سرية في بنوك سويسرية. . .

ومسك رفاق «زعزوعة» ومريدوه بعضهم بعضاً بالخناق. . .
ودخل دائنوه وممولوه من أمثالي في خناق تفليسة لم تُبْقِ ولم تَذَرْ. . .
ذهب «زعزوعة» بأصل المال، وترك للبعض من أمثالي ذكريات الربح الحلال. . .
ولم يبقَ لغيري ـ ممن طمح واستثمر المال والأرباح لديه ـ إلا حسرة وسوء مآل. . . .

وثارت عاصفة من اللوم والتقريع. . .
وسارعت المجالس للتقصي والتحقيق. . .
واهتزت مناصب وترنحت مواقع. . .
ثم ما لبثت أن تاهت الجهود. . .، وتلاشت الوعود. . .

وضاعت الأموال مع هروب «زعزوعة» الدجال. . .

أما أنا فقد لعقت الجراح. . .، وشكوت أمري إلى الله من نظم الانفتاح. . .
نظم ساحت فيها المعالم. . .، واهتزت فيها القيم وضاعت الذمم والمظالم. . .
نظم اختفت فيها أصول الحكم والضبط والرقابة. .، حتى أضحت سبيلاً لكل عابر. . .، ومرتعاً لكل مغامر. . . .

وأردف أبو العيال مُذكّراً صاحبه يقول:
وَعُدْتُ إليك بأرباح السنتين دون أصل المال. . .، أستفتيك فيما أفعل بما آل

إليه الحال. . . ، مع «زعزوعة» المحتال. . .

وأذكر أنك ضحكت كثيراً. . ، وسخرت كثيراً. . . ، من حظي العاثر الذي أوقعني فريسة للتضخم حيناً. . ، وضحية مهزلة الذهب حيناً آخر. . . ، ثم مساهماً في شركات «زعزوعة» الوهمية التي لم تكن سوى أسلوباً انفتاحياً لهروب وتهريب الأموال. . .

ومن جديد، عدت تمنيني ببرنامج جديد، يعوض لنا ما خسرنا من مال وما فاتنا من أرباح. . .

برنامج للاستثمار يعتمد على آخر صيحة في دنيا المال والأعمال. . .

برنامج يعتمد على «التنبؤات اللولبية في الأسواق النقدية». . .

برنامج توجه إليه رؤوس الأموال نحو مرابع الاستثمار الهين المأمون. . . ، ذي الربح الوافر المضمون. . .

وتركتك وأنت تلح على لقاء أكيد، في وقت ليس بعيد، لتشرح لي أسرار هذا البرنامج العتيد، الذي لم يخسر معه مستثمر ولم يُخْذَلْ فيه صاحب مال في تحقيق ما يريد.

التنبؤات اللولبية

في

الأسواق النقدية

حدثنا ابن عربان قال:

«استحلفت أبا العيال
ألا يبرح المجلس مهما طال
حتى يكمل لي حديثه
فيما انتهى إليه الحال
مع أبي الهول وبرنامجه الجديد
الذي وعد فيه بالربح الأكيد...»

فاسترسل أبو العيال يقول:

«ما كادت تمضي بضعة أيام
حتى فاجأني أبو الهول
في تلك الأمسية مع حلول الظلام
وهو يحمل صندوقاً من الورق المقوى كبير
يرزح بثقله وينوء بحمله
وتهتف بي عيناه دون فمه اللاهث:
أن هلم.. هلم إلي يا أبا العيال...
فما كدت أعينه في إنزال حمله الهمام
حتى أشار إلى الصندوق...
وقبل أن يلتقط أنفاساً تساعده على الكلام شرع يهمهم:
«إليك... إليك.. يا أبا العيال.. هاك كنز العصر... ومرآة الأيام...»
فقاطعته.. أهدىء من روعه..
وأستمهله حتى يستريح من العناء
وأتيته بكوب من الماء
أجلسته في الركن الوثير
يجفف ما تصبب من عرقه الغزير
فما لبث أن هدأت أنفاسه

واستراحت أوداجه
فقمت أعد له شاياً أو كوباً من العصير
فحلف ألا يشرب بارداً أو ساخناً حتى نفتح الكنز الكبير
ونطلع على اللغز الخطير..

وشَرِبْتُ خيبة الأمل
ونحن نخرج «الرائي» من الصندوق
وأسفت على جهد أبي الهول وتعبه
عذابه ونصبه..
«ما لنا وللرائي يا أبا الهول..؟
ومتى كان الرائي كنزاً أو حرزاً..؟
أما تراه في السوق
أكثر من الرز وأرخص من النشوق..!
أم أنك كسبته في سحوب الأزلام..
مما كثر الإعلان عنه في هذه الأيام..
ترويجاً لما خف وثقل..
صغر أو كبر..
ندر أو حقر من السلع والأنعام»

وانفجر أبو الهول ضاحكاً رغم حاله المتهالك، ولما لاحظ دهشتي واستغرابي.. من ضحك بدا منه لي في غير وقته.. قال:
«أيُّ راءٍ يا أبا العيال..؟
أما زلت على أميتك في دنيا الأعمال..؟
إنه «الرويتر»..
«الرويتر» الفعال يا أبا العيال
راءٍ ليس ككل راءْ..
إنه الرائي المميز بالآراءْ..

المجهز بالإحصاءْ

ينقلك،
أو ينقل إليك آخر الأخبار
عن شؤون النقد والمال
في لمحة الأبصار..
إنها الأقمار...
الأقمار الصناعية يا أبا العيال..
تأتيك بالأخبار من كل الجهات.
إلا عربسات...!!
تكشف المخبوء وتنزع الأستار..
فتأتيك بالمعلومات
من لندن ونيويورك
باريس وطوكيو
سنغافورة وبون وهونك كونك
فيه البيانات عن أوضاع البورصات
عن الصعود والهبوط..
أو الهبوط والصعود..
وعن التدرج في الأسعار..
أو عن التضخم الجبار..
البطالة في سوق العمل..
أو الرواج المصحوب بالأمل
تحفة الزمان يا أبا العيال..
ومنتهى الأمان..
فمع الرائي العجاب..
تضع ما يناسب من مال..
فيما يناسب من المكان والزمان

ثم تتابع وتراقب

فإذا اتجه المؤشر فيه إلى أدنى أو كاد
تُقَلّبُ المال من وجه لسواه
ومن وساد لمهاد
تركب الموجة الرابحة دوما
وتضع قدميك في ماء بارد. . وتغرق نوما

إنه راء مميز
وبآخر الأخبار مجهز
إن تضغط الزر «البرونز»
تأتيك في الحال أوضاع «داو جونز»
فإذا لمست المفتاح الشبكي
لطالعتك أخبار «النيكي»
أما أسواق سنغابور
فلا تحتاج إلا إلى لمسة خفيفة على الزر المشطور
فإن رغبت بأوفى الشروح
عن بورصات لندن وباريز وبون
فإليك مجموعة من المفاتيح
تطلعت على آخر التصاريح
حول الإيكو واليورو والفلورين
وتأتيك بالخبر اليقين
عن اتجاهات الوحدة او الاتحاد
بين شعوب من ألف لغة وجنس لون

أما الزر المفلوق
فهو خاص بأوضاع «الصندوق»
راع الديون ومهلك البطون

ناشر الجوع ومحطم الضلوع
حامل لواء اللصلصة. . ، مع برامج (الخصخصة)
والداعي لإصلاح الهياكل في كل اقتصاد متخاذل
يصول ويجول
يُنَمّي العجز ويَنْشُر العَوَزْ
من عهد «بريتون وودز»

وقرب ذلك الزر
مفتاح ذو لون كستنائي
متناه في الصغر
إنه مفتاح العون الإنمائي
ودونهما المفتاح ذو السهم المتجه إلى أعلى
فهو مفتاح قروض العالم الثالث الأعلى
وإلى جانبه وبنفس الاتجاه
يقوم مؤشر أسعار منتجات البلدان الصناعية الأغلى
في حين يقابله باتجاه معاكس
لا يحالفه الصعود على الدوام
مؤشر أسعار المواد الأولية والنفط الخام
من منتجات شعوب العالم الثالث
أما المفتاح الأحمر الأخير
فهو المفتاح المنشود
لأمثالنا، ولكل مستثمر خطير
إنه مفتاح لوالب الاقتصاد
لمن لا يفهم في كل الأمور
ولا يفقه في «السبوت» و«السواب»
أو «الأوبشن والفوروارد»
إنه مفتاح التنبؤات اللولبية

في الأسواق المالية والنقدية
يشير إلى الرواج قبل الرواج
ويُلمح إلى الكساد قبل الكساد

فيه لولب طويل وآخر قصير
طويل لمن شاء استثماراً طويل الأجل
وقصير لمن أراد التعامل السريع المتواصل
فاختر يا يا أبا العيال
ما تحب وتهوى
من الاستثمار في كل مجال

إن كنتَ مستثمراً طويل النفس
فعليك باللولب الأكبر
فهو الخاص بالتنبؤات على المدى الطويل
دون التذبذب الأرعن القصير
فإن اتبعته
لا تلق بالًا لسُعار الأسعار المجنونة
فأنت في أيد حنونة
تحملك بعد عمر طويل
إلى مراتع الربح الأكيد والكسب الجزيل

أما إن كنت ممن يهوى التعامل السريع
والأخذ والعطاء
فمجالك إذاً اللولب الأصغر
تشتري حين يميل بك أو يشير إلى الصعود
وتبيع حين يُلَوِّحُ لك باحتمال الركود
وكالمنشار أو المنجل
تحصد الأرباح في الصعود والهبوط

من الشمال لليمين ومن اليمين للشمال
ففي الحركة بركة
وفي السعي نماء وعمار. . .

فَمُرْ يا أبا العيال بما ترغب أو تشاء
لنبدأ برنامجنا في الاستثمار دونما إبطاء
فأجر الرويتر قد سرى منذ المساء
والوقت في الاستثمار من ذهب
فمر يا أبا العيال بما ترغب
هل ترغب التنويع في العملات
في اليورو والإيكو
أم ترغب النزول للبورصات. .؟؟
هل تفضل (الأوبشن)
في الأسهم أو السندات. .؟؟
احسم أمرك ولا تتردد
فالأرباح تنتظر من يغرف ويتزود. . .!!

* * *

حريق الأسياخ

في

سوق المناخ

وأضاف أبو العيال يقول:
«لا أخفيك يا ابن عربان
أنني وقفت من أبي الهول كالمذهول
لا أفقه ما يقول. . .
ولما كنت بعيداً عن تكنولوجيا العصر
وحريصاً على ألا أفصح المزيد من أميتي في هذا المجال. .
صفقت لأبي الهول مؤكداً إعجابي الزائد
برائيه الرائد
وتركت له مهمة اختيار البرنامج المنشود
في ضوء ما تمليه بيانات الاستثمار العتيد من ذلك الرائي الفريد. . .

فقام أبو الهول يوصل الأسلاك
ويضع الهوائي قرب الشباك
يركز الأضواء
ويضبط الإرسال
حتى إذا استقام له الحال
شرع يداعب المفاتيح والأزرار
ويتابع الرموز
تروح وتغدو. . ، وتظهر وتغيب. .
وكلها بلغة الإنكليز. .

فتفالحت وسألت:
«يا أبا الهول
أليس في رائيك معلومات بالعربية. . .؟
عن أسواق للأسهم أو السندات الوطنية. .؟
لماذا لا نستثمر بالدرهم والدينار
أو بالجنيه والليرة بدلاً من الدولار

ما أخبار الدينار العربي الحسابي في رائيك الغربي...؟»

وانتفض أبو الهول كمن لسعه عقرب
ونظر لي نظرة من لا يغفر لمن أذنب...!!
أغلق الرائي
وغطى لوحة المفاتيح والأزرار
وأحضر الصندوق المقوى
وهم بإعادة الرائي الجبار
إلى صندوقه الكبير
وهو يهمهم فيقول:
«لا فائدة منك يا أبا العيال
نأتيك بالرويتر
وتتساءل عن الجنيه والدينار
الأفضل أن أعيد هذا الجهاز
لمن يفهم فيه ويقدره
ولتبق أنت مع مناخ أسواقك العربية
وسهام أسهمك الوطنية
وأرجو أن تصيب بها دون أن تصاب...!!»

وتابع أبو العيال يقول:
قمت أعتذر من أبي الهول
عن ذنب
لم أدرِ أنه بهذا العرض والطول
وأكدت على جهلي بهذي الأمور
وشرحت له أنني كنت متسائلاً مستفهماً
لا قاصداً أو سبرماً
وحلفت ألف يمين

علّ أبو الهول يرق أو يلين

فما كادت تهدأ من أبي الهول الأعصاب
حتى بادرني يقول بزجر واقتضاب:
«ألم تتعظ يا أبا العيال
مما جره عليك الاستثمار في الديار
حتى تعود لسيرة الليرة والجنيه والدينار
أين الأسواق العربية..؟
أية أسواق يا أبا العيال..؟
ألم يأتك خبر سوق المناخ..؟
ألم تسمع النحيب والصراخ..؟؟
كيف دارت الرؤوس بخمر الشركات الوهمية
والأسهم الصورية...
كيف ركب الصغار والكبار
موجة التدليس والاحتيال
فطاحت الرؤوس، وضاعت الفلوس...

ألم يكفك ما آل إليه الحال
مع «زعزوعة المحتال»..؟
أنسيت وليمة التضخم
والانفتاح الذي ساحت فيه المعالم والحقوق.
حتى غدا المناخ الملائم لكل ظالم وعقوق..»

وأردف أبو العيال يقول:
«وَعُدْتُ أكرر لأبي الهول اعتذاري
وأؤكد أنني لست إلا راغباً في الإعمار
فالديار ديارنا
والأهل أهلنا

والدينار في الديار لنا ولأطفالنا
أما الين والدولار
فلن يفيد الأطفال. . .

وكاد أبو الهول يعود لسابق غيظه
وهو يؤكد لي لآخر مرة
أنه لن يشاركني في برامجه الاستثمارية
إن لم أقلع عن ولائي الأعمى
الذي لا يفرق بين الوطن والمال
وطن الإنسان
وإنسان المال
الذي لا وطن له. . .!!

فكففت عن الحديث
وحلفت لأبي الهول أنني لن أتدخل في سعيه الحثيث في مرابع الاستثمار
الذي لا وطن له. . .!!
وجلست أرقب أنامله الخبيرة
تداعب مفاتيح الرويتر الكثيرة
وأعايش أطراف البسمة ما تكاد تلوح على وجهه حتى تغيب. . .
لتعود أخرى في تواتر عجيب. . .

وتابعت حديثه للرويتر كمن يحدث صاحباً ويحاوره
يداعب تارة ويثور أخرى ويستحث ثالثة
كلاعب الطاولة
يخاطب الزهر ويداوره. . .

واستمر أبو الهول يستخير الرويتر ساعات
حاولت خلالها أن أتدخل ملاطفاً
أو أن أستفسر مجاملاً

أو أن أقدم له بعض المرطبات
تخفف عنه بعض العناء
لكن أبا الهول كان في وادٍ آخر
لم تنفع معه كل المحاولات
فما أكاد أتكلم أو أحاور
حتى يبادرني بإشارة قاطعه
من يده البارعه
تجعلني أنزوي في مجلسي
تأكلني هواجسي. . .

وانتصف الليل أو كاد
وغلبني التثاؤب رغم السهاد
وأخذت أغفو في مجلسي وأصحو
وأنتقل في الأحلام من واد لواد. . .
وصحوت من غفوتي مذعوراً
على حلم وجدتني فيه بين مجموعة من الرجال
مقنعين، غلاظ شداد. . ، يحمل كل منهم ساطوراً
يدفعونني أشد الدفع. . ويلقون بي من عال. . .
فإذا بيد أبي الهول تهزني هزاً
وهو يؤز أزاً. . ، ويصيح: «أبا العيال. . .
أبا العيال. . .
لقد بان المخبوء وانكشف المجال
إنه اللولب الكبير. . اللولب الكبير
يؤكد ويشير. .
إلى كشف خطير في بورصة الأسهم»

صيحة المكلوم

يوم

الإثنين المشؤوم

حدثنا ابن عربان قال:

«اقترب الصباح..

وما زلنا في المجلس إلى الحديث نرتاح..

وقد نسي أبو العيال النوم، مع ذكريات أبي الهول... فاسترسل يقول:

«أَكَّدَتْ لوالب أبي الهول، في الرويتر المهول، على كمال الاستثمار في أسهم الدولار...

تُخلط بقليل من صكوك الين..، تطريزاً للفن.. وتشكيلاً في العملات..

كما تُحَلِّي ببعض أسهم الشركات عديدة الجنسيات..

وهي شركات لا وطن لها وتستوطن العالم كله..،

تستبيح مشارقه ومغاربه..

تنهب الضعفاء باسم النماء..

وتتخم بالأرباح أرداف الأغنياء..

فتزداد سمنة واكتنازاً..، وتتمشى تخايلاً واهتزازاً..

وتضحك على أمثالنا من الصغار الراغبين في النماء..

الساعين إلى التشبه بالسادة..

القابعين خلف الشاشات و«الترمينال»، يتصورون أنهم قد غدوا من أصناف القادة..

خاطب أبو الهول مراتع الاستثمار
في أسهم الين والدولار
وبالفاكس السريع
حَوَّلَ أبو الهول ما بقي لدينا من مال نجيع
لأشطر سمسار في سوق أسهم الدولار
وغدونا بغمضة عين في عداد الملاك الأعيان..، ومن أصحاب الأسهم والأطيان...
وامتلأت صدورنا بعطر الأسهم دون أن نراها

ونفخنا جيوبنا بقصاصة تلكس لم نفهم فحواها
وإشعار من البريد
يفيد
أننا قد غدونا كما نريد
من أصحاب الطالع السعيد
طالع الأسهم الدولارية
التي بدأ نجمها يلمع ويتألق
وسلم أسعارها يعلو ويتسلق

استقرت الأسعار
أسعار أسهم الين والدولار
على الارتفاع باعاً إثر باع
وثابرت على الصعود
حتى تجاوزت الحدود
والناس تشتري ولا تبيع
والشراء يولد الطلب الشديد
والطلب الشديد يرفع الأسعار من جديد
حتى انتفخت قربة الأسهم إلى أقصى الحدود»

وأردف أبو العيال يقول:
«عندها
ومع ارتفاع الأسعار
رجوت أبا الهول أن يبيع
ثم ألححت عليه بأن يغتنم الفرصة قبل أن تضيع
وأبو الهول لا يبرح يقول
إنه قد اتخذ مركزاً طويل الأجل
حسب ما يمليه اللولب الطويل

وهو اللولب الذي بنى عليه برنامجه المحكم
في علم الرويتر
الذي لا مجال فيه لرأي أمثالي ممن لا يفهم فيه ولا يعلم..

وتجاوزت أسعار الأسهم المعقول
وأبو الهول راكب رأسه
لا يحيد ولا يحول.. عن لولبه الطويل
الذي يؤكد استمرار الصعود دون نزول

حتى كان يوم الإثنين المشؤوم
يوم الانفجار والإنهيار
يوم أن انفجرت قربة أسعار أسهم الين والدولار
وتطايرت الأشلاء
وتناثرت معها أرقام «النيكي» و«الداو جونز»
والتوى معها لولب أبي الهول الطويل
وترنح هابطاً
وارتفعت أصوات النحيب والعويل...

وفي ظل اتجاه الأسعار نحو الإنحدار
كنت أجري خلف أبي الهول محذراً
وأستعطفه راجياً
أن يبيع قبل الخسار
فيكفينا أن نؤوب بالمال دون الأرباح
قبل أن نخسر من رأس المال بعد الأرباح
لكن أبا الهول بدا كالمذهول
يتمتم ولا أفهم ما يقول
إلا: اللولب الطويل.. اللولب الطويل
ويقلب ويعيد في أزرار الرويتر

ويبحث عن مفاتيح وأزرار ربما تكون قد تاهت
في خضم الإنهيار الكبير
لعل وعسى
أن يلم اللولب الكبير نفسه
ويعود لسابق عهده

لكن محاولات أبي الهول ضاعت
وضاعت معها آمال الكسب الكبير
في أسهم الين والدولار
وعدنا إلى الصفر من جديد
نندب حظنا الذي كان قبل قليل في عداد الحظ السعيد. .

واقتنع أبو الهول أخيراً بالخسارة
لعن الرويتر وتف على الشاشة
وقام يلقي الرويتر من الشباك
لولا أن تداركته ناصحاً
بألا يزيد من الخسارة

ولكن كيف انهارت الأسعار
أسعار أسهم الين والدولار
ذلك الانهيار المفاجيء الخطير. . .؟؟

البعض قال إنها لعبة الكبار
والبعض أيقن بأنها لصالح أصحاب الدولار

أما البعض الآخر فقد اتهم الحاسوب
الذي سلمه الناس حرية اتخاذ القرار
فاشترى وباع
ثم اشترى دون أن يبيع

ثم باع دون أن يشتري. . . فانهارت الأسعار

والبعض اتهم اللوالب الاقتصادية
ومنها طبعاً لولب أبي الهول الطويل
واعتبرها مؤشرات خرافية
تدخل في باب حسن الحبك والإخراج
للعبة لها أربابها ومروجيها، ممن لديهم الإحصاءات الكافية
لتجعلهم يمسكون بالخيوط
ويديرون آلة الصعود والهبوط
فيأكلون ـ كالمنشار ـ صعوداً وهبوطاً

والبعض أفتى بأنها لعبة استهدفت الاستثمار الحلال
الذي لحق أسهم الين والدولار
بعيداً عن ربا القروض والسندات. . . !!
وبقي اللغز رغم التحليلات
في علم من يعلم الغيب
ولكن
في كل الأحوال
وإذا كانت العبرة بما آل إليه الحال
فالنتائج كانت تشير
حسب نظرية القيد المزدوج الشهير
أن كل نقص لا بد من أن تقابله زيادة
وأن الخاسر لا بد من أن يقابله رابح
فخواء معظم الجيوب في دنيا المقامرة والمضاربة
يقابله نماء وعمار في بعض الجيوب
وهكذا كان

دليل المحتار

بين

الين والدولار

قال ابن عربان:

«وبعد استراحة قصيرة تناولنا فيها بعض الشراب والحلوى في مجلسنا الأثير، عاد أبو العيال يكمل حديثه ويقول:

«ما كادت تمضي بضعة أيام
وقبل أن نفيق من صدى صدمة يوم الإثنين المشؤوم
قام أبو الهول ـ كمن يريد الإنتقام من اللولب الكبير ـ بالتحول إلى اللولب الصغير
باع أسهمنا بأقل مما اشترى بكثير
وتحول إلى العملات
وراح يرقب المؤشرات
يبيع الين للدولار
ويبيع الدولار للين
ينقلب إلى الفلورين
أو يشتري الإيكو بقدر
ثم يعود للدولار بحذر
يداعب المارك المأمون
ويهمس للفرنك المصون
يودع لأجل قصير
ويسحب كلما أشار اللولب الصغير

تمنطق «بالأوبشن»..
وحارب «بالسبوت» و«الفوروارد»...
وغطى «بالسواب» و«الهيدج»...
ودافع «بالأربيتراج»....

أجر واستأجر السندات
باتفاقيات إعادة الشراء

وبلا مراء
بدا أبو الهول يستجيب
للعبة العملات
كالطالب النجيب
فما كنت تراه إلا خلف الرويتر
يسأل ويحاور
واللوالب الرويترية
الطويل منها والقصير
تنطق عما تُسأل وبالأرقام تجيب
وطاب لأبي الهول اللعب
وغدا من أعجب العجب
فطاعت له البورصات
وطأطأت لقراراته العملات
فما يكاد يبدو على لولب العملة بعض الشحوب أو الأفول
حتى يطيح بها أبو الهول
كمن يطيح بحذاء قديم
ليشتري جديداً آخر يلمع
من عملة أخرى نجمها على اللولب يسطع
واستمرأ أبو الهول الحال
ودارت الأيام
ومر الزمان على الحول فحال
وإذا بأبي الهول قد غدا نجماً يشار إليه بالبنان
ويضرب له السلام
في أوساط الاستثمار المأمون
وبعد أن كان يعمل على رويتره المتواضع
في ركن ضيق من بيته الصغير

صار المدير الكبير
في مكتب وثير
لشركة ذات باع طويل وفروع
في مختلف الأسواق والمواقع والنجوع

ولم يعد لأبي الهول وقت للكلام
ولا مجال للسلام
لم نعد نراه إلا لماماً
ثم احتجب تماماً

فإن أحببت أن تصل إليه
أن تسأله عن حاله وأهله وبنيه
فلا بد لك من موعد مسبق
تحاور به سكرتيرة حسناء
يفوح من لفتاتها عطر الزنبق
تخطر بدلال، تتعطف وتتأنق

عربية الأصول
تصول وتجول
بكل اللغات.. إلا لغة الأصول
تسألها بلكنة عرجاء
عن موعد منشود
مع أبي الهول العتيد
فتجيب باعتذار أطيب من الرجاء
وتسهب في شرح الظروف
وأنت عاجز عن تمام الفهم شغوف
فإن عدت للإلحاح.. ودفعت بالأسباب
شكت ضيق الوقت بأعذب شكوى وبأدب جم لطيف

فتكتفي حيال لطفها الزائد بالإياب

ثم تكرر الذهاب لتكرار السؤال
والتمتع بلطف الإعتذار
تشرح الظروف والأسباب
وتبين صدق المودة بين الأصحاب
حتى يحن قلبها الرقيق
فتحظى بموعد دقيق.. مع أبي الهول الصديق...

تدخل
فيقابلك أبو الهول بالعناق
ويفصح عن مكنون الود وصدق الأشواق
ويكرر اعتذاره اللبق
الذي يذكرك باعتذار السكرتيرة الحسناء
صاحبة عطر الزنبق

وتتوه في رصد الثراء
ووصف الفخامة والبهاء
وأنت جالس في مكتب أبي الهول الهمام
الذي كان قبل عام
يصعد بصندوق الرويتر على السلالم في الظلام
ويتوه ويغرق في الزحام
زحام تراكم الهموم مع مرور الأيام...

ففي المكتب ـ بدلاً عن رويتر وحيد ـ
شاشات ملونة منها العديد
وأشكال وألوان من الهواتف الثابتة والمتحركة
الجوالة..، الأنيسة والمؤنسة...
الطنانة..، والرنانة...

وعديد من اللوحات الفنية نسقتها أنامل ذكية
ناهيك عن الأثاث فإنه فريد من نوعه لا مثيل لأناقته

يطلب لك أبو الهول الشراب
ويبالغ في الحفاوة والترحيب
وينساب حديثه الشيق إليك دون حجاب
يلتقط بعض المكالمات الضرورية ويجيب عليها باقتضاب...

وتشعر أن أبا الهول قد ظل أصيلاً
لم تحجبه الأبهة عن الأصحاب
ولم يفتنه العز أو المال
ولا رفعة الحال
عن الإصغاء لهموم البسطاء من الأهل والأحباب

وظل أبو الهول يطمئنني كما كان يطمئن الجميع
بأنه سيعوض لنا كل ما تكبدناه من خسائر
جناها لنا حظنا العاثر
ويؤكد أنه قد اهتدى أخيراً إلى رموز المعادلة الصعبة..، واطلع على أسرار
وخبايا اللعبة... وتجاوز في فهمها أصحابها ومبتدعيها

وكنا ـ من جانبنا ـ ندعو له بالإزدهار
وبدوام الحال
وبالعون من مالك العون
عله يحقق لنا بعض الآمال
مما فشلنا في تحقيقه رغم ولوجنا لكل باب
في مجال الاستثمار وتقليبنا كل الأحوال...

وحملت نسائم الحظ السعيد
لأبي الهول أحلى الوعود

وطافت به أبهى العهود
وما قصر أبو الهول من جانبه في نصرة المقهور
وعون المدين المأسور
وكان يسعى في لهفة الإحسان
لفك الضيق ونجدة المحتاج والعاني

وارتفعت الأكف له بالدعاء
ولهجت له الألسن بحسن الرجاء
وما توانى أبو الهول في نفع الأصحاب
من بعيد أو قريب
بالنصح والرشاد والعدل والإنصاف
فأثرى
وأثرى معه من وثق به والتجأ إليه

كذلك لم يقصر أبو الهول في التوجه نحو الديار
فعاد يسعى لكسر الأسوار
أسوار الأوطان العالية
أمام المال والاستثمار
دفعاً للتنمية وسداً لغائلة الجوع والتبعية

صال وجال
توسط وسعى وحار
لكنه
كما أسر لي
عاد فاصطدم بواقع ميؤوس
تحكمه المعالات الصعبة والدهاليز الملتوية
والتوازنات التي لا توازن فيها
وقيود الصرف والسحب

والأسعار الرسمية والقوانين الاسمية
«وهوامير» الأسواق السوداء
من السادة والتابعين
والمراسم الخاصة لإدخال أو إخراج الفلوس
مراسم لا بد من أن تهان فيها النفوس
أو يدفع فيها الهوان بالأتاوات والعمولات
في ديار أصبح من فيها
أو جل من فيها من ضعاف النفوس.

وأردف أبو العيال يقول:
«وأذكر أنني عندما رأيت أبو الهول صدفة في دار بعض الأصدقاء
كان يأسه من عمار الديار واضحاً
وسخطه صريحاً
وكان ما فتأ يستعير
قول سعد زغلول الشهير:
«ما فيش فايدة يا سعدية»
وطال يومها بيننا الحوار
حول الين والدولار
وعن مجالات الاستثمار
وذَكَّرْتُهُ حينها برأيه السابق في هذا المجال
رأيه في عملات الصغار. . .
والاستثمار في الديار
عندما أتانا بالرائي الهمام
منذ أكثر من عام
وضحك أبو الهول يومها بأسى وقال:
«إنه اليأس يا أبا العيال
اليأس مما حل في الديار

لكن لا تصدق أن هناك من يثري من خارج الأوطان
فالمال هناك مهما بلغ وصار
مال مرهون
حبر على الأوراق
يا أبا العيال
هل تأكل الأطفال حبراً على الأوراق؟

خير لنا يا أبا العيال
أن نُعوِّد الأطفال أكل خبز الشعير
وشرب لَبن البعير
مما تنتجه الأوطان
عوضاً عن التهام «الفروزن»
بالدولار يُثمَّنْ
وبالهرمون يُسَمَّنْ
أو تَجَرُّع ما في المعلبات المدهونة
بالخطوط والألوان مزيونة
لا ندري ما بها وما فيها
تَعَوَدْنا معها أن نقعد فَنُطْعَمَ ونُكسى
كما تطعم الأنعام
نتسول الطعام
أو نستدين من عالم المرابين
فنرهن مستقبل الأوطان
لنملأ البطون

أو كالذئاب
نعف عن العمل والاكتساب
نترك زراعة الأرض

لنأكل بعضنا البعض

تلك هي الحال
يا أبا العيال
يأس من أوضاع الديار
يدفعنا لغريب الاستثمار
فيأكلنا الغريب
ونغترب في الديار
فلا حول ولا قوة إلا بالعلي الكبير».

* * *

اخر اللسعات

من

سلة العملات

حدثنا ابن عربان قال:

«في مجلس آخر من مجلس الكرام..، قبل حلول الظلام..، دخل أبو العيال المجلس وبادر بالسلام..، فاستقبلته راجياً أن يكمل لنا ما انقطع من حديثه الأنيس عن أبي الهول وبرنامجه النفيس في الاستثمار بالين والدولار الذي بز فيه الكبار

فأخذ أبو العيال يذكر الأحلام السعيدة في تلك الأيام البعيدة فيقول:
«... وما زال البريد يحمل لي مطلع كل شهر كشف حساب مزين بأحلى الأخبار... عن حصيلة الاستثمار..
فهدأ البال وانتعشت الآمال... مع الأرباح التي تكبر وتزيد مع برنامج أبو الهول السديد

برنامج كان يزداد سداداً ونجاحاً كلما ازدادت ألسنة وقلوب زبائنه من صغار المستثمرين أمثالي شكراً ودعاء...

وحملت دعوات الشكر والوفاء أبا الهول على نسمات السعد والرجاء..
فما اتخذ قراراً إلا أصاب، وما اختار مجالاً إلا أحسن فيه الذهاب والإياب..

أجاد لعبة الأسرار في مجال الاستثمار، وبز باللعب أربابه وفاق فيه مبتدعيه وأصحابه

دونما لف أو دوران... ومن غير غش أو تدليس... ظل أبو الهول مستقيماً نظيفاً.

كان في حلبة الصراع التي لا تترك موطئاً للنزاهة نزيهاً...

وفي دوامة الحرص على الكسب التي تستهلك الأخلاق خلوقاً...

كان عن طاحون الجشع بعيداً، وفي نزال غابت عنه روح الفروسية وطغت عليه «شطارات» الغدر والتلاعب فارساً عفيفاً...

أمين على ما اؤتمن عليه...، حريص على صالح من أوكل إليه... شديد

الحساب لنفسه غيور على حمى صحبه وربعه. . .

إن اضطرته ظروف الديار المتردية أن يخرج بالمال للأسواق العالمية. . فإن عينه كانت دائماً على الديار وقلبه فيها. .

فما بخل يوماً بالنصح والإرشاد

وما زال يسعى للم الشمل وجمع العباد على أدنى حدود المصلحة والتكامل في النماء. . .

يؤكد ويعيد. . ، يساهم ويسعى. . . ، يوسط ويدعو. . . ، ينادي من قريب ومن بعيد. . .

ولكن ما كان يجاب إلا بصدى ندائه الضائع في بيداء الغفلة وقفار الجهل الشديد. . .

المتلاشي في مستنقع فقدان الثقة بالذات. . .

المبدد ببلاهة الفرحة والرضا

بأحلام العيش

في ظلال الذل السعيد. . . !!

قال ابن عربان:

«واسترسل أبو العيال يشيد بصاحبه أبي الهول حتى شابت لهجته غصة ألم وخنقت صوته ملامح العبرات حينما وصل بحديثه إلى القول:

«تحدثت عن أبي الهول المحافل. . .

جمهور يشيد. . . وقلة بين غيور وحسود. . .

وصغار المستثمرين مع أبي الهول لا يكفون لحظة عن الشكر والثناء والدعاء بالنجاح. . .

أما أرباب لعبة الاستثمار مع الكبار المتخمين بالأرباح فلم يشعروا أبداً بالارتياح. . .

فأبو الهول ظاهرة خطيرة في سوق المال. . .

وهو سوق لا مجال فيه لدخيل ينجح أو متطاول يفلح. . .

لقد فك أبو الهول الرموز... واكتشف الأسرار... وتعلم اللعب حتى على الكبار...

وقد حاول الكبار إغراء أبي الهول بما لذ وطاب..
ولكن الرجل كان يلعب بنزاهة تبعده عن مهادنة الكبار والسير تحت لوائهم...

كان أبو الهول يدير لعبة الاستثمار بخلق يبعده عن التواطؤ مع الأرباب على حساب الأصحاب...
وهو أسلوب من اللعب لم يعهده الكبار من اللاعبين الصغار...
فعهد الكبار بمن تعلم اللعب من الصغار أن يرضى بالفتات ويلعب لحساب وصالح الكبار لا أن يستقل بالرأي وبالقرار بما ينفع الأهل والأصحاب... الأمر الذي لم يهضمه الكبار ولم يغفروه...

فتوجهت السهام
سهام جماعة الكبار
إلى أبي الهول الهمام
بعد أن غدا أبو الهول
ظاهرة شاذة في عالم الاستثمار
ظاهرة لا يقر الكبار مسارها
ولا يغفرون استقلالها
ظاهرة تتعارض مع النظام
فقد تشيع الرخاء وتنشر الأحلام
حول البعض ممن في العالم الثالث من الأنام
مما لا يستقر معه الاستقرار أو السلام

لذلك
فقد أضمر الكبار لأبي الهول الخراب
وتوعدوه في الضمائر بسوء الحساب
فما أشرق صباح يوم أغبر

حتى صدر القرار عن قمة الكبار...
بوقف نشاط أبي الهول في كل الأسواق
ومصادرة وتجميد أرصدته وأموال شركاته وفروعه في كل الأصقاع
والآفاق...!!»

* * *

لا خيار للصغار

في

لعبة الكبار

حدثنا ابن عربان قال:

«عدت لأبي العيال بعد العشاء أستمع في لهفة لحديثه عن أبي الهول الذي قام العالم ضده ولم يقعد لأقف على الأسباب...

الأسباب التي كانت وراء قرار الأمم الكبار بوقف أبي الهول عن الاستمرار في دنيا الأعمال...

فوجدت أبا العيال قد اتخذ مكانه هناك في المجلس بعد الصلاة يسبح، يحمد ويستغفر...

فجلست إليه أسأله عما آل إليه الحال مع أبي الهول في تلك الأيام الخوال...

فاستوى أبو العيال وشرع يقول:

«أُعلن القرار بوقف أبي الهول عن التعامل في مجالات الاستثمار وطرده من أسواق المال وتجميد أرصدته في البنوك ومصادرة ما يملك من أسهم وسندات وما تتعامل به شركاته من منقول وغير منقول من السلع أو العقارات...

وجاء في حيثيات القرار المنشور أن أبا الهول قد خالف قوانين الاستثمار العالمية وتدخل في الأسواق على نحو أفقد تلك الأسواق ميزان العرض والطلب الحر الأمين... مما شكل خطراً فادحاً على النظام العالمي العزيز المتين...!!

وأردف أبو العيال يقول:

«ونقلت الصحف المحلية ما بثته وكالات الأنباء العالمية من مقالات وتحقيقات الصلف والشماتة في أبي الهول...

ولم تخل من أقلام وتعليقات محلية تؤيد الأنباء وتصفق لأصحاب القرار البناء... الذي اتخذ في قمة الأمم الحريصة على أن يسود العالم النظام...

ثم قال أبو العيال:

«وما كان مني إلا أن حثثت الخطا لمكتب أبي الهول علّي أقف على بارقة من أمل حول مصير الفلوس... فلوسي وفلوس صغار المستثمرين في برامج هذا الاستثمار المنحوس...

دخلت فإذا السكرتيرة الحسناء تجفف ظلال الدموع.. أشارت إلي، وكأنها نسيت الكلام إشارة فهمت منها أكثر من حديث طويل..

كانت تقول بيديها: تفضل تفضل يا أبا العيال

تفضل فالمصاب أليم وأبو الهول في الداخل يحتاج من يواسيه..، ويشد على يديه..

قابلني أبو الهول بالعناق مهللاً.. وبالضحك مجلجلاً..: ها أبا العيال.. كيف الحال.. عَوْدٌ على بدءْ يا أبا العيال... إلى الصفر من جديد... هل أتاك ما قيل وما يقال...؟؟

وعندما لمح أبو الهول دهشتي من هذا اللقاء الضاحك الساخر في موقف لا يحتمل فيه مثل هذا الحال.. أخذ بيدي يجلسني ويقول: تعال... تعال يا أبا العيال

والله يا أبا العيال لست آسفاً على شيء مضى

إلا على خذلان أمثالك من الأصحاب في الديار

من صغار المستثمرين الذين لازمهم نحس الاستثمار في كل مجال

حتى آل الآمر إلى أن تجمد الأرصدة ويصادر المال.

ما كنت محتالاً يا أبا العيال

ولن أحتال

ولكنني أدركت حقيقة كبري

حقيقة تقول إن النظام القائم في دنيا المال والأعمال

لا يسمح فيه السادة من الكبار

أن يفلح الصغار أو يكسبوا إلا بمقدار

ولا أن يستقلوا بالقرار

فإن صدف أن تغير بعض الحال أو مال

وبدا كأن بعض الصغار قد حالفه بعض النجاح

في مجال الكسب والنماء

أو في مجال حسن الإختيار وسلامة القرار
يختل النظام
نظام السادة الكبار
فتسفر النوايا وينكشف المخبوء
ويصدر القرار سهلاً مريحاً عن قمة الأمم
بردع النجاح ومصادرة النماء وإحباط الهمم.

باختصار يا أبا العيال
كل ما في الأمر أنني تعلمت جانباً من اللعبة وأهملت الآخر

تعلمت لعبة الاستثمار في أسواق الين والدولار
في نيويورك وطوكيو، لندن وسنغابور
في الأسهم والسندات، وفي سلة العملات
في الذهب والفضة، في النحاس ومختلف السلع والفلذات
مما يباع ويشترى على الورق ويتداول الصكوك
وتجنى فيه الأرباح قبل أن ينتج أو ينزل السوق.

تعلمت هذا الجانب من اللعب
وبزت فيه أصحابه
لكنني قصَّرت في تعلم الجانب الآخر
لم أتعلم فن الرضوخ
الرضوخ لنظام لعبة الكبار
أفعل ما يملون
أغش وأخون
ألعب على حساب الصغار لحساب الكبار
أتسابق مع المتسابقين في تحقيق ما إليه يومئون
لم أتعلم هذا الجانب الآخر من اللعبة
لا عن جهل أو غباء

فهذا الجانب سهل هين
لمن له نفس تهون
يغرق بالنعيم والثراء
ينعم بالغالي والثمين
يؤجر الضمير، يتخم البطون على حساب الضعفاء

كل ما في الأمر يا أبا العيال
أنني لم أتعلم فن الغش والرياء.
لقد كنت في الأسواق
أحرص المتعاملين على التوازن الثمين
بين العرض والطلب الحر الأمين
كنت أكثر اللاعبين
التزاماً بما هو مرئي من النظم والقوانين
لكنني أدركت من خلال اللعب
أن أسطورة العرض والطلب
ليست إلا ستاراً ذكياً يستمد من قانون اقتصادي موقوف
وغلالة تزركش بادعاءات التنافس لتخفي حقيقة التحكم والاحتكار
يختبىء خلفها اللاعبون من الكبار
يديرون لعبة الكسب والسعار
كما يختبىء أصحاب الدمى
يحركونها بالخيوط خلف مسرح للعرائس.

أداروا لعبة الذهب
وأخرجوا مهزلة تدوير الفوائض
والإغراق في الديون
باسم العرض والطلب الأمين
فكوا ربط الدولار عن الذهب

فحمل كل حامل للدولار
تكاليف حرب فيتنام وحرب النجوم
وأعباء التسلح والحروب
ودعم زراعة القمح لديهم والحبوب
فاحتكروا الغذاء ونموا العداء

أجّروا الجنود والعتاد وتاجروا بالحروب
باسم العرض والطلب الأمين ونظام السوق الحر المتين. . .
نفخوا قربة الأسهم حتى الانفجار
وصفقوا للانهيار
يوم الإثنين المشؤوم
باسم السوق الحر والعرض والطلب الأمين

رفعوا الدولار فهبت الأسعار
وعادوا للدولار الرخيص
باسم الحفاظ على النظام وصالح الأنام وحرص الحريص
فبقيت أسعار الصناعات عالية
واتجهت للهاوية
قيم المواد والنفط الخام
فالنفط بالدولار يثمن
والدولار رخيص
يطبع ويعمم
ويتهافت عليه الأنام
تهافت الفراش على النار في الظلام
ويسخر ويضحك أكبر المدينين
وزعيم المرابين
من غفلة الأنام

من استقرار النظام
النظام مستقر
والعالم في تقدم
وكل الأمور تمام التمام. . . . !!

وتابع أبو الهول يقول:

«أَطلْتُ عليك يا أبا العيال
ولكن تلك هي الحال
وذاك ما آل إليه المآل
عدنا للصفر من جديد
هل نبحث عن استثمار جديد. . !!؟؟
أنتم من يبحث بعد الآن
فأنا موقوف عن النشاط مجمد الأعمال
بموجب ذلك القرار المجيد. . !!
ولكن صدقني يا أبا العيال
أنني لست حريصاً على جاه أو مال
فالمال يأتي ويروح
وحب المال مفسدة الحياة
لمن ألهمه الله معنى الحياة
وتكديس الثروات مرصود بالممات
والحساب عسير
فالملك لله
والإنسان خليفة
سيسأل عما استخلف فيه
وعما جنت يداه
لكنها السمعة

السمعة يا أبا العيال
فكل ما أخشاه
أن يُساءَ الظن بي
ممن أحببت وأخلصت وسعيت في رضاه
من الأهل والأحباب
فيُصدِقُ ما قيل وما قد يقال. . .
أنا. . . أنا لست محتالاً يا أبا العيال
ولن أحتال. . . !!

قال أبو العيال:

«غص أبو الهول بالكلام
وكاد يشرق بدمع مكتوم
لقد كان شديد الألم
لوصمه بما لم تجن يداه
شديد الخوف
من أن يتهم من قبل الأصدقاء
بسوء الأداء. . .»

وأردف أبو العيال يقول:

«ولم أشك لحظة في إخلاص أبي الهول وصدق كلامه فلم يكن أبو الهول محتالاً ولن يحتال. . .
ونسيت ما أنا به من هموم مع فقدان المال
وغدا همي أن أخفف من همه وما ساده من وجوم
فطفقت أقول:
«فداك المال يا أبا الهول
سعيت واجتهدت. . .
أخلصت النية وصدقت. . .

ولا يدَ لك فيما انقلب إليه الحال
وما أظنك إلا منصفاً مجبوراً
فما زال في العالم ديموقراطية وقوانين
وناس يؤمنون بالحقوق ويدافعون عن المظلومين
فما علينا إلا أن نلجأ للقضاء
فعسى أن نجد في قضاء المتقدمين
ما ننشده من عدالة
وما يؤوب علينا بالرجاء.

* * *

مر الطعام

من

مأدبة اللئام

حدثنا ابن عربان قال:

«عدت في الغداة إلى مجلس الكرام، فلقيت أبا العيال يهم بالصلاة، فصلى بنا إماماً فأحسن النطق بالكلمات، وجود في الآيات، وراعى الأحكام وأحسن الختام.

صلى وسلم على المصطفى الإمام، وعلى كافة الأنبياء والمرسلين.

وخص بالدعاء من هم أهله من الصحابة والتابعين وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين

وذكر في دعائه أبا الهول فرجى له الرحمة والثواب عند رب العالمين».

وأردف ابن عربان يقول:

«ما كدنا نفرغ من الصلاة والذكر حتى عدت أسأل أبا العيال أن يحدثنا عما آل إليه الحال في ذلك الحين، وما إذا كان قد أفلح لجوء أبي الهول إلى القضاء في البلدان المتقدمة... بلدان السادة التي لا يهضم فيها حق ولا يضيع مال لمظلوم...

فتنهد أبو العيال وهز برأسه أسفاً وهو يحدثنا فيقول:

«رجوت أبا الهول ألا يستسلم لليأس

فالعالم بخير

والدساتير تضمن الحقوق وتدرأ العقوق

والنظام في الدول المتقدمة مصان

والقانون يطبق على الكبير والصغير الغني والفقير الحاكم والمحكوم

والعدالة هناك تسري سريان الدم في العروق فلا بد ـ في مثل هذه الحال ـ أن نكسب في قضيتنا العادلة كل الحقوق

طالما أن الأمر يتعلق بحق مهدور وظلم واقع

لا بذنب اقترفناه أو مال سرقناه...

فالقضاء هناك عريق

لم يفسده الجشع أو الجوع
ولا تكسير الضلوع.

واسترسل أبو العيال يقول:

«وأذكر أن أبا الهول لم يكن متحمساً لهذا المنحى
فقد أصابه من عقدة الكبار ما أصابه
فأصبح لا يرى في الديموقراطية إلا ديموقراطية الكبار
وفي القضاء قضاءهم
وفي القوانين أحكاماً لصالحهم تشكل...
أو قواعد وفق أهوائهم تُلوى وتأول...
كان يرى أن العدالة هناك لها ميزانان
ميزان توزن به مصالح السادة
وميزان توزن به حقوق الغرباء والمتطفلين
المهاجرين أو المهجرين أو المهجنين
من صغار العالم
المتطلعين إلى الحضارة بغباء... المبهورين المقلدين

وأن الإعلام هناك منحاز..، للسادة الأفذاذ... أو للمعلن الممتاز...

إلا أنني ـ يقول أبو العيال ـ ألححت على أبي الهول ألا يفقد الأمل
وأن يشمر عن ساعد العمل
فقضيتنا عادلة تستأهل الصراع والمنازلة

وقبل أبو الهول على مضض
مؤكداً أنه إنما يفعل ذلك لكي لا يقال يوماً بأنه قد قصر أو تخاذل، بحق من أوكل إليه ماله..
أو ائتمنه على مستقبل عياله.

واستطرد أبو العيال يقول:

«ورحت أجمع الأصحاب من صغار المستثمرين
نكتب الشكاوى والعرائض
ويباهظ الأتعاب نكلف أكفأ المحامين
للترافع أمام المحاكم الشرقية والغربية
نطرق أبواب هيئات العدل العليه
ونوسط ما أمكننا من المنظمات الشعبية والأقنية الدبلوماسية
لنصل بالموضوع إلى قمة الأمم
وإلى مختلف الجهات الإقليمية والدولية.

وكنا فيما نرفع من شكاوى وعرائض
وما نسطر من مذكرات المرافعة والدفاع
لا نفتأ نبين سوء الحال مع فقدان المال
الذي هو حصيلة ما ادخرناه لمستقبل العيال
ولا نتردد عن بيان ما لحق صغار المستثمرين
من ظلم فادح وغبن صريح...
مع قرار قمة الكبار بتجميد الأرصدة ومصادرة المال

قال ابن عربان:
«وبعد توقف وجيز عن الكلام سلم فيه أبو العيال على بعض الصحبة الذين شاركونا المجلس، عاد يقول»:

«ودارت الأيام
بين أمل يطالعنا بعض يوم
ويأس يلفنا كل الأيام
أحيلت القضية إلى كل أنواع اللجان
خبراء في المال
ووجهاء في السياسة والاقتصاد وأعيان
وتضخمت الأعباء والتكاليف

فرحنا نستلف ونستدين
أملاً في أن يُفْرجَ عن المال
فنسدد أصحاب الديون ومصارف التسليف.

وكادت الأمور تبشر بالخير
فقد اهتم بتمحيص الموضوع قاض نزيه في المحكمة العليا
وطالبت بعض الأقلام في بعض الصحف بإعادة النظر في قرار القمة العليا
قرار وقف أبي الهول عن الأعمال وتجميد الأرصدة ومصادرة المال...
إحقاقاً للحق وإنصافاً للمظلومين...

ولكن ما كاد الأفق يفصح عن بصيص من الأمل
حتى صدر القرار مرة أخرى عن قمة الكبار
باستدعاء أبي الهول للمثول أمام القضاء...
بتهمة جديدة أثارها السادة الكبار...
في دعوى مستعجلة لا تنتظر التأجيل...
تُهمةٌ لم تُلْحَظْ في القرار السابق بتجميد المال
تهمة تتعلق «بغسيل الأموال»
وهي تهمة إن ثبتت قد يعاقب مرتكبها بالسجن سنين طوال...

وجاء في حيثيات القرار الجديد
أن البحث والاستقصاء...
وإعادة التدقيق في المستندات..
وتقصي الأخبار والأنباء...
قد أظهر أن حسابات أبي الهول باسم صغار المودعين لم تكن سوى حسابات وهمية.. ادعى فيها أبو الهول الأخذ والعطاء والمتاجرة في أسواق المال.. ليغطي بها أعمالاً غير شرعية...

واستندت الحيثيات إلى شهادات الشهود
والإفادات والقيود...

وأثيرت ضجة إعلامية حول ابي الهول
وذهبت بعض الأقوال
إلى اعتباره من الرؤوس الكبيرة في شبكة فساد وإفساد دولية. . .
فقرعت ضد أبي الهول الأبواق والطبول
ووزعت النشرات والصور على الانتربول
وفي ضوء القرار الجديد
تخلى القاضي النزيه عن القضية في المحاكم الدولية
واعتذر محامونا عن الاستمرار في الدفاع
وتوقفت الجهود الشعبية والدبلوماسية
وضاع المال والمأمول
وضاع مع المال أبو الهول
وغرقنا فوقها بالديون. . . . !!

أين أنت الآن يا أبا الهول المسكين
هل كنت تدري أن النهاية ستكون
مع الرويتر وبرامج الاستثمار اللعين. . !!؟؟

حدثنا ابن عربان قال:

«توقف أبو العيال عن الكلام تخنقه العبرات مع سيل الذكريات
واستأذن بالانصراف بدعوى قضاء أمر تذكر ضرورة قضائه على عجل. . !!»

وأكد ابن عربان قائلاً:

«ما كنت لأترك أبا العيال ينصرف بحجته تلك لو لم أشفق عليه من الاستمرار في الحديث الذي بدا أنه قد أصبح عليه ثقيلاً على نحو لم يعد قادراً على الاستمرار فيه
لكنني بكل شوقي إلى الوقوف على ما آل إليه أمر أبي الهول ومصيره المجهول. . .

رجوت أبا العيال ألا يطيل علينا الغياب..
وودعناه على أن نعود إلى لقاء قريب
إن شاء الله السميع المجيب.

* * *

أرقى فنون اللصلصة

تحت

قباء الخصخصة

حدثنا ابن عربان قال:

«وَدَّعْتُ أبا العيال في آخر لقاء لنا في مجلس الكرام بمقتضب السلام... حرصاً على حاله المتداعي... ورغبة في إراحته من ألم الذكرى الذي خنق صوته فغص بالكلام... واستأذن بالانصراف قبل أن يصل بنا حديثه إلى ما آل إليه الحال مع صديقه أبي الهول بعد أن صدر بحقه ما صدر من قرارات القمة التي استُدعيَ فيها للمثول أمام القضاء بتهم جل فيها القضاء.

وَدّعْتُ أبا العيال في ذلك اللقاء راجياً أن نلتقي بعد أيام...
لكنني لم أدر عندها أن لقاءنا ذاك كان آخر لقاء لنا في مجلس الكرام...!!
ما كنت أدري عندها أن الأيام ستطول فتبلغ الأشهر والأعوام دون أن أعود للقاء أبي العيال في ذلك المجلس الذي اعتدنا عليه وأنسنا فيه لأعذب السوالف وأحلى الكلام...

فقد أَلَمَّتْ بي وعكة أقعدتني عن موافاة أبي العيال في مجلسنا المعتاد
وما كدت لثوب العافية ـ بفضل الله ـ أعود
حتى نُدبت لخارج الديار... للصندوق الكبير...
أتابع وأغطي بالإعلام الجهود
جهود حقل «الخصخصة» الموعود.
فغرقت هناك في دوامة الندوات والمؤتمرات
واستمعت ولخصت المحاضرات
وأرسلت بآخر الأخبار والتلكسات والبرقيات
وزرت مع الصندوق الكبير كل صغير وكبير من الأمصار
نقلب النظر في أوضاع القطاع العام العتيد
الذي كان ـ قبل ربع قرن من الزمان ـ محط الآمال الكبار في التنمية والإعمار...

فقد صفقت للقطاع العام ـ آنذاك ـ وللتخطيط المركزي كل الأقلام في الصناديق والهيئات المحلية والدولية

وأفردت له الأبحاث والدراسات
وأيدت الاعتماد عليه ـ كوسيلة تكاد تكون وحيدة للتنمية والتقدم ـ كل المنظمات والمحافل الإقليمية والعالمية..
ثم انقلب الحال مع تراكم الديون وسوء الأحوال
فإذا بالأقلام في الصناديق والبنوك والهيئات والمحافل المحلية والإقليمية والدولية تعتبر القطاع العام مسؤول التخلف عن النماء
ومعيق التنمية والرخاء
بعد أن آل جل ذلك القطاع إلى مرتع للفساد ومظهر من مظاهر الضعف وسوء الأداء والركود

فقد غدا القطاع العام معطية النخبة من الصفوة و«تكية» السلطان...
يُغَذّى به الأنصار والأعوان
فتنتفخ الجيوب، وتمتلىء البطون... وتزداد الأرصدة في الخارج تكديساً وتئن الديار نزفاً وإفلاساً...

قال ابن عربان:

«ذهبنا للبلاد السعيدة نتابع كل جديد في عالم تحرير الاقتصاد والنظام الجديد..
وتهنا في شؤون الخصخصة والانفتاح..، وغرقنا في دوامة التعريف والأهداف... الأسلوب والأوصاف..
خصخصة أم خوصصة أم تخصيص
تخصصية أم خصوصية أم تخصيصية
نقل للملكية أم إصلاح للخلل في هيكل الاقتصاد
بيع المال العام بالمزاد...
أم تعديل لنظم دعم استهلاك السلع والعتاد...؟؟
إصلاح الأسعار في ظل التضخم المسعور..
أم سداد للديون بأسهم وحصص رأسمال المؤسسات.. ورهن مستقبل العباد..

اشتد الحوار وطال.. ولم يصل الناس في ذلك إلى قرار

وتداعت سلسلة الانفتاحات دون نظام... وتوالت عمليات بيع المؤسسات بلا أحكام
البعض باع القطاع العام كله واستراح
فغرق في البحبوحة أياماً عاد بعدها للصريخ والنواح...!!
والبعض حول المال العام للدائنين سداداً للديون... فصفقت له الأوساط الدولية وأشرقت وجوه الناصحين...

وظل البعض محتاراً:
هل يُمَلّك العمال بالتقسيط
فيتعرض لضغوط الديون ويتهم بسوء التخطيط
أم ينصاع للنصح والإرشاد...
فيقايض القطاع العام بالديون...
ليغدو بذلك من المقربين..
الذين تفتح أمامهم الأبواب لإطعام الجياع المعذبين
بالمزيد من القروض والديون...!!؟؟

وأردف ابن عربان يقول:

«وفي خضم الصراع.. كنا نلمح في بعض الأحيان، إشارات من بعض الناصحين، يدعون للتروي والأناة في مسألة القطاع العام...
يؤكدون أن الأولوية لسيادة القانون.. والتزام الحاكم والمحكوم... كشرط أوحد للتقدم والنماء
يلحون على ضرورة المساءلة في إدارة المال العام.. قبل قطع الأرزاق وتسريح الأنام...
يتكلمون عن العدالة في الملكية والتوزيع قبل الإنفتاح والتنويع...
يتحدثون عن ضرورة السعي لتوفير الاستقرار والطمأنينة والثقة في اقتصاد الديار قبل سياسات التعويم أو التنويم....
عن ردع الفساد كشرط لازم لسيادة النظام... وإنقاذ العباد

عن الإنتاج والفلاح
قبل فتح مصاريع الإنفتاح
عن كبح جماح الشطط
الذي امتد إليه القطاع العام
باسم البرامج والخطط
عن ضرورة دعم الإنتاج
قبل دعم الاستهلاك
عن إعادة إعمار الريف
ووقف النزيف
نزيف تشييد غابات الاسمنت
في أرجاء المدن الميتة
التي غدت بلا أرجاء أو رجاء

إلا أن مثل تلك الأصوات المخلصة، كانت تتوه في سيل الدعوة الجارف إلى الخصخصة..
فكانت تحذف أو تبتسر من المحاضر
تحجب عن النشر في الدوريات... ويطمس الحديث عنها في المحافل والدوائر...

وتابع ابن عربان حديثه يقول:

«غرقنا في دوامة الأبحاث والندوات شهوراً تجاوزت العام السعيد...
وحضرنا من المؤتمرات... العديد...
ومن الدعوات والمآدب كل طريف فخم وفريد...
وكان ما يزال في برنامج الخصخصة المزيد...
فتجارب الخصخصة في الأمصار من قريب أو بعيد جديرة بالمعاينة والبحث والاستقصاء لتستكمل الفائدة ويعم الخير وينتشر الرخاء...

لذلك قمنا نركب مع برنامج الصندوق الكبير رواحل الجو والبحار... ونقطع

الجبال والأنهار.. نجول من أدنى المعمورة لأقصاها..

بدأنا من جنوب الجنوب حيث التجربة الكبرى من دول اللاتين التي كان لها قصب السبق في الخصخصة وسداد الديون...

دول مهذبة سمعت الكلام وانصاعت للنصح الهمام فكانت على رأس الأمصار المرضي عنها من النظام...
النظام العالمي للأنام.

ثم عرّجنا بعد ذلك على الوسط وفيه الكثير من أقطار الخصخصة وحبك الخطط...
وطرنا بعدها لنشاهد العجب من نمور آسيا النُجب مثال التنمية والنماء...
والتعدد بتعدد الرغائب والأهواء، في مؤسسات النظام العالمي الجديد..
وشركاته من ذوات الأجناس المتعددة والأذرع المتمدمدة...

وما تركنا مصراً أو بلداً شمله التخصيص من بلاد العالم الثالث المسكين إلا زرناه بحثاً واطلاعاً على تجارب للخصخصة تمت باللين باعاً أو بالهمز واللمز انصياعاً...

ووددنا لو اشتمل برنامجنا في الزيارة والاطلاع بعض الدول اللطيفة الظريفة: الاسكندينافية منها مثلاً أو فنلندا.. النمسا أو إيرلندا..
وتساءلنا عن السبب في عدم شمول برنامج الصندوق الكبير مثل هذه الأمصار... وعما إذا كان فيها قطاع عام يخصخص.. أو انفتاح يبهر الأبصار...؟
فقد تناهى إلينا، أن في أمثال هذه الدول الظريفة اللطيفة قطاع خاص سعيد تعقد عليه الآمال يتسابق فيه رجال الأعمال على كسب المال وخدمة الأجيال...
ويقوم فيها ـ إلى جانب القطاع الخاص ـ قطاع عام فعال..
يدعم ويساند..، يؤيد ويعاضد
وينشر الثقة في الاقتصاد ويسعد العباد...

وأن القطاعين العام والخاص يتعايشان وينعمان بالسلام...
ويتسابقان على كسب رضا الأنام...

فاتحنا بذلك مسؤول الصندوق الكبير
رجوناه أن يشمل برنامج الزيارات المديد بعضاً من هذه الأقطار...
علنا نقف منها على ما يفيد
من تعايش بين القطاع الخاص والعام وتضافر الجهود فما كان من المسؤول في الصندوق الكبير إلا أن أفهمنا ـ مختتماً برنامج الزيارات ـ بأن تجارب هذه الأقطار اللطيفة الظريفة المبتلاة بالهدوء والاستقرار... لا تفيد دولنا من العالم الثالث ـ ذات التاريخ المجيد...، التواقة الفوارة للتطور والنماء واستعادة المجد والخلود...
فسكتنا على مضض
وقنعنا من الغنيمة بالإياب
بعد أن طال عن الديار الغياب

واختتم ابن عربان حديثه يقول:

«وما انتهى برنامج الزيارات المشهود إلا قرب نهاية عام آخر انتهى معه بنا الحال إلى شوق للديار شديد..

وكان لي فوق شوقي الشديد للديار... شوق أكيد لسماع ما غبت عنه من حديث أبي العيال الفريد في مجلس الكرام السعيد...

ماذا حل ـ ترى ـ بأبي الهول وبرنامج الاستثمار العتيد...
هل أعيد النظر في قرار المصادرة والتجميد..؟؟
هل أفاد أبو الهول من انفتاح العالم السعيد في كنف النظام العالمي الجديد...؟؟

حديث المحار

في

دفء البحار

حدثنا ابن عربان قال:

«ما كدت أضع عني ثياب السفر والترحال...، وأهنأ بقليل من راحة الجسم والبال...، وأطوي ملف الخصخصة والتخصيص الذي أضاع من العمر شهوراً عزيزة... حتى قمت أسعى لمجلس الكرام... أنشد سماع حديث انقطعت عنه عاماً وجل العام...

حديث أبي العيال، فيما آل إليه الحال مع قصة الأرصدة المجمدة والمال المرهون... والاستثمار في دنيا الأعمال...
عن أبي الهول وبرنامجه المهول... عن استدعائه للقضاء بتهمة الاحتيال وغسيل المال... وألف ألف خاطر وسؤال...

شغلني في غيبتي الطويلة ما أنا فيه من مهام المتابعة والتمحيص في مهام وجهود الصندوق الكبير في الخصخصة والتخصيص...
ما صغت وأرسلت من تحقيقات عن إصلاح الهياكل الاقتصادية والانفتاح الكبير...
ما شاركت به من أبحاث ودراسات...، وما دعيت إليه من ندوات ومؤتمرات... تعقبها الولائم والمآدب والحفلات...
ومن سفر وترحال متواصل لمختلف البلدان والأمصار
شغلني كل ذلك عن متابعة الأخبار وعن التواصل مع أبي العيال في الديار...

تابعت، أول عهدي بالسفر الطويل، نتفاً في الصحف تؤكد استمرار النظر في قضية أبي الهول من خلال الانتربول... ثم لم أعد أسمع عن هذا الموضوع أخباراً تذاع أو نتفاً في الصحف تباع..
لذلك كنت في شوق شديد لسماع ما آلت إليه الأحوال لدى أبي العيال من جديد..

واستطرد ابن عربان يقول:

«دخلت مجلس الكرام... وبادرت بالسلام.. صافحت..، وصافحتني وجوه

كثيرة علقت بالخيال... إلا وجه أبي العيال..!!
سُئلت عن أخبار السفر والغياب...، فحدثت الأصحاب بالنتف من الأخبار باقتضاب...، أرقب دخول أبي العيال بعين معلقة على الباب...
طال بي الانتظار...
تحدثت وسمعت الحكايا والأخبار من الصحبة والسمار إلا حديث الاستثمار... حديث أبي العيال
نودي لصلاة المغرب... وأقيمت بعدها صلاة العشاء.. وما زلت أنتظر.. لعل وعسى أن يلج أبو العيال المجلس متأخراً وإن لم يكن عهدي به إلا أن يكون سباقاً إلى مجلسنا رائداً في انتظارنا...

طال بي الانتظار حتى بدأ السامر في المجلس ينفض رويداً رويداً... وأنا على حالي تلك آمل وأرجو وحيداً...
وما كدت أهم بالانصراف، بعد أن حوم اليأس بي وطاف..، وآذن الليل بالانتصاف حتى التفتّ إلى لمسة على كتفي...، شيخ جليل سلم فأحسن السلام وهنأ بسلامة العودة والوصول وهو يقول:

«أراك ترقب الباب يا ابن عربان...، لعلك تنتظر صاحبك أبا العيال..؟؟

فأجبت متلهفاً: أي والله يا شيخنا الجليل فما أدري ما الذي أقعده عن الحضور وما عهدته متخلفاً عن مجلسنا الظليل...

هز الشيخ رأسه حسرة وهو يقول: «لقد أطلت الغيبة يا ابن عربان...، ففاتتك أحوال وغابت عنك قصص بعنوان وبغير عنوان...!!

واستطرد الشيخ يقول مؤيداً بما لاحظه في عيني من الإلحاح على سماع المزيد: «لعلك ترغب في سماع ما آل إليه الحال بأبي الهول المسكين وأبو العيال الرصين...

فأما أبو الهول فالعلم عند الله...، ولسنا ندري أين أمسى وفي أي صقع تاه...

حيكت عنه قصص أغرب من الخيال أقل ما قيل فيها أنه راح يحدث المحار في شواطىء البحار عن فنون الاستثمار...!!

وأما أبو العيال فقد ارتحل إلى الجبال في شمال الديار...!!

قال ابن عربان:

«لم يجد الشيخ بداً وقد لاحظ ما أصابني من ذهول المصدوم مما أوجز لي وأنهى من سوء الختام.. إلا أن يستريح في جلسته إلى جانبي ويبدأ بسرد القصة التي فاتتني غائباً فيقول:

«في أول الأيام ـ بعد أن غادرتنا ـ بقي أبو الهول في مكتبه الأنيق يصرف بعض الأمور وينوي تصفية الأعمال على أحسن ما تسمح به الظروف والأحوال... سرح موظفيه..، وأحسن في سراحهم الجزاء وأجزل العطاء...

أما السكرتيرة الحسناء فقد أبت إلا أن تشارك أبا الهول أيام المحنة والعناء كما شاركته أيام العز والرخاء..

اقتصدت من عطر الزنبق وخلطته بقليل من البخور.. وأفلحت في تهذيب لكنتها فأضحت أقرب إلى لهجة الجذور...!!

شرع أبو الهول في سداد بعض الديون مما بقي لديه من مال غير مرهون..

وكان مما يثلج الصدور آنذاك تسابق الناس في الديار على نظرة أبي الهول إلى ميسرة فيما هو فيه من إعسار...

بل وتصدق ميسور الحال من الناس بما يسمح به حاله تزوداً بالخير وحرصاً على زكاة ماله...

فبدأ أبو الهول يقف على قدميه من جديد، بعيداً عن الأنتربول الذي لم تكن له فروع في الديار

وكاد أبو الهول يفلح في تحسين حاله محلياً..، بمال قليل يثمره في مجال ثم يؤدي مما يتيسر من أرباحه إلى دائنيه ممن ضاق بهم الحال...

يشارك في عمل رابح صديقاً مليئاً ليفي حق صاحب محتاج. . .

وانتعشت لدى أبي الهول ومن حوله الآمال، في نشاط بدا يثمر في الديار أطيب الثمار. . .

نشاط فيه تعاطف وتعاون. . ، نجدة ووفاء، عدالة وتوازن. . .

نشاط صاحبته الحركة والنماء. . ، وسعت قبل سعي الناس فيه بركة السماء. . .

ومضى أبو العيال إلى جانب صاحبه أبي الهول في سعيه الحثيث لإصلاح الحال وإنعاش الآمال. . .

يسهر الليالي. . ويدعو الأهل والأصحاب لمزيد من التعاون البناء. . .

يطيب الخواطر ويشرح الصدور لاستثمار في الديار يبشر بالسعد والحبور

وكان مما فكر فيه أبو الهول
وأيده فيه أبو العيال
مشاريع الطاقة الشمسية
فالشمس في بلادنا دائمة السطوع
مشرقة بالخير حانية
حبانا الله بها دائبة في سماء صافية
تبشر بالخير والعافية
بعيداً عن التلوث والسخام
وعن المفاعلات وشبح الموت الزؤام

استدعى أبو الهول من كان قد هاجر من العلماء
فتسابقوا إليه مخلصي النية
وشرعوا في صقل ألواح مادتها الرمال البيضاء
تختزن من الشمس كل الضياء
تحلي المياه وتنير الأفراح
وتصدر الطاقة في بطاريات جافة
لبلاد الضباب. . .

ومضت على ذلك الحال أشهر اقتربت من العام..
تشهد تحسناً حثيثاً في نشاط أبي الهول الحثيث لتعويض ما ضاع في الأسواق العالمية ببرامج استثمار محلية...

وتابع نشاط أبي الهول الجيران...
مال قليل يثمر في الأوطان..، تتسابق في دعمه الجهود المخلصة بعيداً عن الجشع والتكالف والظنون...
وتتعاون على إنجاح تثميره أياد بيضاء تغار على تراب الوطن الثمين... فتغمره البركة ويفيض بالخير والإحسان...

وتحدثت عن مشاريع أبي الهول المحلية ونشاطاته في الطاقة الشمسية التي تكللت بالنجاح في الديار بعض الصحف المحلية...، وألمحت إليها بعض النشرات الدولية...

وبدا نشاط أبي الهول في الديار قدوة تستحق الاقتداء...
وتجربة رائدة توحي بإمكانية النماء بمال قليل بعيداً عن نصائح الصناديق وعن شبكة الديون..
وعن مصائد المضاربة في الأسواق العالمية وما فيها من برامج استثمار لعين...

ورصدت أجهزة السادة الكبار ما تناقلته الأخبار عن نشاطات أبي الهول الناجحة في الديار، فجن جنون السادة واضطربت أركان النظام...
تنمية حقيقية تقوم بمال قليل على أكتاف التعاون والإخلاص في الجهود...؟؟
بعيداً عن الديون وبمعزل عن أسواق المال..؟؟
وفي غنى عن مبدأ تصدير التكنولوجيا من شركات الكبار...؟؟
سيفلح إذا بعض الصغار في كسر الاحتكار.. وسينتشر خبر الفلاح فتصيب عدواه كل الصغار، ستفلس البنوك وتقفل الأسواق...
وتتدنى الأرباح الفاحشة للشركات الفاحشة ذات الأجناس العديدة والأذرع المتمدمدة...
وستعمل المصانع في الدول السعيدة في الحدود الدنيا لنقاط التعادل دون

هوامش جزيلة للأرباح فيسرح العمال وترتفع معدلات البطالة وتقوم المظاهرات وتسقط الحكومات.. حكومات السادة الكبار وتعم الفوضى...

ألا يعلم الصغار أن هياكل سادة الاقتصاد قد ضبطت على استمرار تخلفهم وفشل جهود نمائهم...، على استمرار الديون والنهب الموزون..

جياع لا تعمل وتأكل المخلفات.. تتسول الفتات وتعيش عالة على الحكومات...، وحكومات تستدين لتستورد الطعام لشعوب تعودت أن تستكين..

تلك دعائم النظام ومعادلة الاقتصاد الحر والانفتاح الثمين...

فكيف يجرؤ أبو الهول ـ المطلوب من الإنتربول والصادر بوقف نشاطه قرار من قمة الأمم ـ أن يخل بالنظام فيقود إلى الفوضى كل الأنام..!!؟؟

بحث السادة بنظام ودبروا في إحكام...

فوجدوا من الأعوان من يعينهم ـ محلياً ـ على وقف انتشار ظاهرة أبي الهول...، والعودة بها لدائرة الأفول..

فتحين العون، وكان من دائني أبي الهول فرصة قيام الأخير باستخدام جل ماله السائل في سداد بعض المشتريات العاجلة ووفاء بعض الأجور الحالة.. فقام بتقديم شيكات كان قد اتفق مع أبي الهول على تقديمها في مواعيد محددة كشيكات مؤجلة...،

وأسرع العون بإقامة دعوى إصدار شيكات بدون رصيد ضد أبي الهول العتيد..، تلتها دعوى إشهار الإفلاس..، تطورت لدعوى إفلاس بالاحتيال بحجة قيام أبي الهول بجمع ودائع الناس دون أساس...

وتضرع الناس حول أبي الهول للدائن الشاكي..، وتبرع الكثير منهم بأدائه أضعاف دينه لإسقاط الدعوى وفض النزاع... دون جدوى..

وتوسط الكثير من الوجهاء لدى القضاء بالمصالحة على الديون.. دون فائدة أو رجاء..

وبناء على قرار صادر عن النائب العام
أوقفت أنشطة أبي الهول في الديار وختمت بالشمع الأحمر الأبواب...
واستدعي أبو الهول للمثول أمام النيابة العامة...
وغدا حديث الناس من الخاصة والعامة...»

قال ابن عربان:

«تثاءب الشيخ وتململ في الكلام مستأذناً بالانصراف على أن نعود للحديث في الغد مع حلول الظلام...

فتركنا مجلس الكرام ولم يبق فيه سوانا على أمل اللقاء في الغد إن شاء الله تعالى.

قال ابن عربان:

«نام كل الناس.. إلا أنا.. ظللت في تقلبي على الوساد أتساءل لماذا يركب النحس أبا الهول وصاحبه أبي العيال...
لماذا لا يفسح المجال أمام العباد.. أمام من جد إلى النماء السبيل...
وتناوبتني الهواجس والأفكار...
واضطربت في خاطري الهموم..
فأبعدتني عن عناق النوم...
حتى أنقذني من هواجسي صوت المؤذن الجهور ينطلق من المكبر الكبير الكبير...»

عودة الضال

إلى

عرين الأشبال

حدثنا ابن عربان قال:

«سبقت الشيخ الجليل إلى مجلسنا المعتاد..، وما كدت أراه يخطر من بعيد ويلج الباب، حتى قمت لاستقباله مفسحاً له مكاناً أثيراً على وسادة وثيرة

جلست بين يديه أتطلع إلى شفتيه تفتتح العودة للحديث الذي انقطع في مجلسنا الأنيس ليلة البارحة بعد أن تأخر الليل بنا وخلا المجلس من السمار سوانا...

ولم تفت الشيخ لهفتي لاستكمال الحديث المقطوع عن أبي الهول الصريع وصاحبه أبي العيال المبتلى بنحس الاستثمار في الديار وخارج الديار...
فلم يضع وقتاً ولم يطل صمتاً... فما كاد يستريح حتى بدأ باستكمال حديثه الصريح فشرع يقول:

«سيحزنك يا ابن عربان ما سوف تسمع عما آل إليه الحال بأبي الهول وصاحبه أبي العيال... ولكنها حكمة الله وقضاؤه.. فهو المبتلي وهو المعين وما الأجر والمثوبة إلا للصابرين...

تركتك بالأمس وقد وصل بنا الحديث إلى أبي الهول الذي صدر القرار بوقف نشاطه في الديار واستدعائه للمثول أمام النائب العام بتهمة إصدار شيكات بدون رصيد... تطورت إلى دعوى للإفلاس بالاحتيال...

ولم تفلح المساعي الجادة في درء المصاب.. فرد طلب تأجيل الدعوى ولم يقبل الرجاء بالتخفيف من خلال الصلح الواقي...

وعلمنا بعدها أن الضغوط ـ ضغوط السادة أصحاب النظام العتيد ـ قد مورست دون توان على السلطات صاحبة القرار... حملت تلميحاتها الوفود... وأوماً بها ما صرح به السفراء من وعود أو وعيد... وكانت كلها تطالب بعدم التهاون مع أبي الهول المطلوب أساساً من الإنتربول... والذي تمادى في النصب والاحتيال داخل وخارج الديار...!! على زعم السادة الكبار...

اجتمع إلى أبي الهول الأصدقاء والأحباب، يقلبون الرأي ويهونون

المصاب...، يبايعونه على الاعتصام...، أو الإضراب عن الطعام...، على التنديد بالقضاء في مسيرة من الناس الخلصاء
الناس الذين شرعوا بتذوق لذة التعاون البناء وحلاوة الإعمار في ظله والنماء...، دون وساطة الوسطاء من سماسرة المال..، أو نصح الناصحين في صناديق المرابين...، أو مشورة جهابذة العلماء من أتباع ذوات الجنسيات المتعددة والأذرع المتمدمدة... أو خبراء الأجور الباهظة من تلاميذ أصحاب النظام من السادة العظام...

طاف أبو الهول بجمع الأحباب شاكراً صدق الوفاء راجياً ألا يحمل الناس الطيبون أي عناء...
لقد سعى فأينع السعي...
واجتهد فكاد أن يصيب...
وما وقفة الناس من حوله إلا خطوة على طريق طويل أدرك الناس مبتداه...
ولا بد سيصلون يوماً إلى غايته ومنتهاه ولا بد أن يتحقق القصد والمأمول
وحلف أبو الهول ألا يحرك إنسان ساكناً...، ورجا الناس أن يعودوا لحالهم...

وانصرف مع أبي العيال يلملم ما تبقى له من قليل عتاد...
يودع السكرتيرة الحسناء التي غادرت البلاد وفي عيونها دمع غزير يفيض على الخدود كاللؤلؤ المعقود...

واصطفى أبو الهول في أيامه الأخيرة أبا العيال فأقام لديه ينتظر اليوم الموعود للمثول أمام القضاء في الديار...

يقضي الساعات في كتابة بعض الخواطر في كراس صغير.. أو يداعب الصغار من أطفال أبي العيال..، ويمضي الأمسيات وحيد الخطا على شاطىء البحر يجول...

دعاه أبو العيال إلى مجلسنا في إحدى الأمسيات، وجلسنا نستمع إليه ونحثه

على ألا يسكت على الضيم..، فمعارفه كثر... فيهم من علية القوم...، ممن يدرك صدق مسعاه في خير الناس وعمار الديار...

وكان أبو الهول يشكر لنا لهفتنا عليه وغيرتنا على الصالح العام ويعدنا باتخاذ ما يلزم...
لكننا كنا نستشف من تعابير محياه أنه لن يطرق باباً ولن يحرج صاحباً...
وكأنه كان يقول لنا: لا فائدة الآن.. فما آن بعد الأوان..، فاللعبة أكبر من وساطة صاحب أثير أو شفاعة صغير أو كبير.

واستطرد الشيخ يقول:

«واستمر الحال بأبي الهول على ما ذكرت... يسجل الخواطر في الصباح... يداعب أطفال أبي العيال... يحكي لهم القصص الطوال... يمرح معهم بالكرة أو يضرب الأمثال...
وفي المساء يمشي وحيد الخطا على الشاطىء الطويل...
حتى كان اليوم الذي يسبق اليوم الموعود لمثوله أمام القضاء...
سجل أبو الهول آخر الخواطر في الكراس الصغير..
داعب العيال... واحتضن الطفل الصغير...
ثم حمل دفتر الخواطر وراح يتمشى على الشاطىء تتابعه أعين الأطفال وهو يختفي مع الغروب في الأفق البعيد...

انتظر أبو العيال صاحبه أبا الهول طيلة الليل...
وأشرق الصباح...
سأل العيال عن أبي الهول... راحوا يحثون الخطا على الشاطىء الطويل...
خرج معهم من النامس الكثير...
يبحثون ويدعون عبر الأثير
أبا الهول... أبا الهول...
ضجت الرمال بالدعاء
واصطدم الصوت بالصدى

واختلط الرجاء بالبكاء
وتردد الدعاء في كل الأرجاء
ألا يكون قد أصاب أبا الهول مكروه
أو اعتراه بلاء. . .

واستمر البحث طيلة النهار
تعب الصغار وبكى الكبار
ولم يجد القوم بعد طول بحث وعناء
إلا صفحات ممزقة من دفتر الخواطر تعصر الماء
صفحات ساح فيها المداد واختفت منها الأحرف والسطور. . .

تفرق الناس بين واجم ومقهور. . .
وعاد العيال إلى الدار
وعاد أبو العيال
وطاف الطفل الصغير يسأل بأحرف لم تتضح معالمها:
«أبت وين عم الهول»
احتضن أبو العيال طفله الصغير. . . وأشاح بوجهه يخفي عبرة وهو يقول:
«عمك أبو الهول راح إلى البعيد البعيد. . . راح يحدث المحار في دفء البحار عن لعبة الأقدار»

واستطرد الشيخ يقول:
«وما زلنا يا ابن عربان لا ندري ماذا حل بأبي الهول. . .
إلا أن الناس حرصوا على ألا يذكروه إلا برجاء الرحمة من الله وحسن الثواب. . .
فإذا سأل عنه الأطفال. . . كان يقال إن أبا الهول راح يحدث المحار في دفء البحار عن قصة الاستثمار في الديار وخارج الديار. . . عن لعبة الأقدار. . .»

تابع الشيخ حديثه قائلاً:
«أما صاحبنا أبو العيال فقد اسودت الدنيا في عينيه وأظلمت الحياة بعد رحيل

أبي الهول إلى المجهول...
فما كنت تراه إلا واجماً حزيناً... مثقلاً بالهموم.. قليل الكلام.. ميالاً للانطواء... وباللقاء ضنيناً...

كان أبو العيال ـ كما تعلم يا بن عربان ـ من أوائل الملازمين مجلسنا السباقين إلى لقائنا...
لكنه غدا بعد رحيل أبي الهول عنا... عازفاً عن لقاء الأصحاب في المجلس إلا لماماً وبعد طول احتجاب...
وكنا ـ بدورنا ـ ندرك ثقل ما يعانيه... فما كان منا إلا الدعاء له بالعون والصبر وحسن الثواب

كان أبو العيال لأبي الهول من أقرب الناس... وكان من أكثر المتضررين من تلفيقه الإفلاس...
ضاع مال أبي العيال القليل في برامج الاستثمار الذليل في الأسواق الدولية التي انتهت بالمصادرة والتجميد والتضليل...
وراحت مدخرات العيال وحلي قليلة لأم العيال وما استدان فوقها من أموال...
وضعها تحت تصرف أبي الهول ليقف على قدميه في الديار... راحت كلها مع مكيدة الإفلاس المقصود لنشاط أبي الهول المرصود...

فما بقي لأبي العيال إلا ديون يسددها من مورد محدود وأفواه يطعمها من أبسط الموجود...

واجتمع الناس في المجلس على عون أبي العيال...، وأغدق الكثير من المال...، لكن هيهات... فما كان لأبي العيال أن يقبل مالاً قل أو كثر من صاحب أو خليل...

عانق الأصحاب في المجلس بالدموع...، وشكر الله على فضل الإيمان المستقر في الضلوع...، وجذوة الإحسان التي لم تزل تضيء في نفوس الجميع...

وقام يرجو الناس أن يبحثوا بين الناس عمن هو أحوج للمال منه ربما أصابه في ذلك قليل من الأجر أو ناله بعض من الثواب...

وأردف الشيخ يقول:

«وانقضت بعد ذلك شهور، قام خلالها أبو العيال بالعمل ليل نهار... بغي ما استدان من مال وما استلف من ديون...

أعاد مدخرات الأطفال إلى نصابها المعهود...

وعوض أم العيال حليها بكل جديد وفريد...

ثم تنهد الشيخ وهو يقول:

«وكم ساد مجلسنا الوجوم في تلك الأمسية التي لا ننساها... عندما أطل علينا أبو العيال في ذلك اليوم مودعاً صحبه الكرام بأعذب الأماني وألطف الكلام... تساءل الأصحاب... واشتد السؤال...

لكن أبا العيال ما برح يقول إنها إرادة الله فالرزق عليه... منه وإليه... وإنه مرتحل على أمل اللقاء في مستقبل قريب يبتسم فيه الرجاء فيحلوا معه اللقاء

وعندما ألح الأصدقاء بالسؤال: إلى أين يا أبا العيال...؟؟

لم نسمع منه إلا أنه عائد للأهل هناك في الجبال شمال الديار...!!

* * *

غزو الأمم

بقرارات الأمم

حدثنا ابن عربان قال:

«ما زلت في مجلس الكرام، افتقد الجلوس لأبي العيال يحدثني عما كانت تخبئه الليالي والأيام..

عن حكايا وقصص الاستثمار، يصول فيها ويجول ـ في الديار وخارج الديار ـ صاحبنا أبو الهول... وبرامجه في توظيف المال التي لم يسعفه فيها الحال في كل مجال... فآلت إلى ما آلت إليه: من ضياع للمال ورحيل للرجال...

ما عاد للمجلس، بعد أبي العيال وحكاياه المثيرة، تلك النكهة السامرة مع الوجوه الساهرة...

وازدادت الأحوال بعد رحيل أبي العيال اضطراباً
فما لبثت أن دارت بنا الأيام تحمل المزيد من العناء والهموم...
وضجت الأصقاع بما هو أشد هولاً من مآسي أبي الهول..، وأكبر أسىً من أرصدة تجمد أو مال يضيع...
فقد بتنا في إحدى الليالي على شبح غزو أغبر...
وصحونا على اجتياح مُدَبَّر...
استباح الديار فيه كل صغير وكبير... وشرخ الأمة شرخاً أصاب القلب والجذور...
فما عدنا نميز صاحباً من عدو..، ولا أخاً عقوقاً من صديق لدود يخلط الوعيد بالوعود أو ينشر الظلم باسم الأمان...

فأطبقنا صدورنا على هم الإنكار لكل الأفكار..، وأغلقنا القلوب على شغاف الحيرة من عبث الأقدار واليأس من مستقبل الأطفال...

ثم توالت بعدها الحداث والخطوب...!!
فبعد أن أفرغ الغزو من الأمة ظاهر الحمية..، وادعاءات الأمن والقوة...، وأماني الجد والتعاون...
وبعد أن تم ارتهان الأوطان بما دفع من تكاليف وأثمان لمزعوم الأمان...

إذا بنا أمام سلام نجر إليه كالأنعام..، تساق إليه ظهورنا بالسياط..، فلا نحيد عن الصراط..، أو نتنكب السلوك القويم...
صراط النظام العالمي العظيم..، وسلوك القانع بالأذى..، الراضي بذل التبعية..، المصر على التمسك بها.. والاستمرار تحت رحاها.. المتسابق لإرضاء السادة العظام من أصحاب النظام...
نظام لم نفهم منه إلا أننا مطية يركبها العظام ممن تقدم من سادة الأنام..
نقاد إليه من حلوقنا باللجام...
لجام قرارات القمم من مجمع الأمم...

قرارات تصدر صريحة سهلة النفاذ عندما يتعلق الأمر بركوب المطايا..
ثم هي مائعة، مطاطة، خجولة، مترددة عندما يتعلق الأمر بدرء المصاب عن مؤمن مقهور...
أو دفع العدوان عن حرائر بأغطية الصلاة تهاجر..
أو أطفال تقتل عوائلهم فيباعون بيع المتاع...

قرارات تقفل في سبيل نفاذها المنافذ، وتستخدم لإيقافها حقوق الاعتراض عندما تتعلق بشجب أو وقف عدوان يستوطن الديار..
أو عودة مبعدين عن أطفالهم وديارهم أبعدوا زوراً وبهتاناً...

ثم هي تبدو صارمة مخيفة، يتسابق أهل الدار في الحرص على تنفيذها قبل الغير والجوار..، عندما تتعلق بتهمة تلفق لصاحب كلمة حق تقال...
أو جريمة تزوق ضد الإفصاح عن رأي حر لم يعتد صاحبه الخضوع والإذلال...، أو التعبير عن إرادة تتجه نحو التخلص من ذل التبعية ومحاولة الاستقلال بالقرار...

توالت القرارات...

واستمرأ السادة العظام لعبة القمم في مجمع الأمم، تعيد عهد الاستعمار القديم باسم النظام العالمي الجديد...

تارة باسم حقوق الإنسان...!!
وأخرى تحت شعار إطعام الجائعين اللذين ماطلت القرارات إطعامهم حتى الموت...
وثالثة تحت ستار الحفاظ على النظام...

الهدف من القرارات واحد: التوسع والاستيطان، استنزاف الإنسان..، مصادرة المال والأوطان...

كل ذلك على حساب غفلة الغافلين..، وجهل الجاهلين والمجهلين...، وحرص الحريصين على جاه زائل..، وسلطان حائل..، ونعمة مرهونة بقرار يصدر بين الحين والحين..، عن قمة الأمم..، حسب أهواء ومصالح أصحاب النظام الرصين...

وأردف ابن عربان يقول:

«جلسنا نتابع الأخبار على الشاشات الملونة.. ونستزيد من الأقنية..، تبثها الأقمار المزينة.. لا ندري ما إذا كنا النظارة..، أم أننا الدمى والأنعام على مسرح الدنيا، يتفرج العالم، كل العالم، على مشاهد غفلتنا الغبية...
وفصول جهلنا الساذج..، ومظاهر عدم احترامنا لذواتنا الذي أفقدنا كل احترام...

يتفرج العالم..، كل العالم.. على معلقات الخصام..، وقصائد الفرقة والتناحر..، وأوسمة التسابق على إرضاء السادة..، مما أتقنا أداءه على مسرح الدنيا أيّما إتقان حتى غدونا فرجة الإنسان..!!

ننام على صدى أخبار المدافع..، تقصف منا كل المواقع..، شمالاً وجنوباً وفي كل البقاع..، حتى غدا ضربنا كل يوم من قبيل الأمر الواقع..

فإذا سكتت عنا المدافع إلى حين..، رحنا نضرب بعضنا البعض جادين مخلصين.. ونمارس من أشكال الضرب والقمع كل الفنون..
نصحو على صور الجياع والمهجرين في الشاشات تذيب المشاعر وتهز منا

الضمائر دونما حيلة أو وسيلة فكأنما جوعنا أمر معلوم وتهجيرنا قدر محتوم..!
أو كأنما سربت الأوامر ـ من السادة العظام ـ بأن الدفاع عن المؤمن المحاصر..، أو الجائع المقتول عمداً مع سبق الإصرار..، أو المهجر ظلماً دون إنذار..، ليس من اختصاصنا...

نسينا أننا عن فك المؤمن المحاصر مسؤولون..، وعلى إطعام الجائع في الجوار مأمورون..، وبنصرة المهجر المطرود ملزمون...، وأننا في استمرار جوع وحصار وتهجير ذوي القربى آثمون...

ثم لا يلبث أن يمر علينا الضحى بعد ذلك على قرار جديد بمصادرة مال جديد غير مال أبي الهول العتيد..
فما أكثر ما لدينا من مال مشرد..، يدعو كل عابر سبيل أن يغرف ويحصد..!!

ونمسي بعدها على غزو جديد باسم إطعام من قتل من الجياع..، ما أسرع ما يصدر به القرار وتصفق له الأصقاع..، وتشيد بإنسانيته الألسن..، ويتفنن في تصوير رحمته المعلق والمذيع في الرائي والمذياع..

باعاً بعد باع..، وبقعة وراء بقعة تجتزأ الأوطان وتتسرب..، يُهَجَّر من يُهَجَّر ويُغَرَّبُ من يُغرّبْ..، يُباع من يُباع ويُقتل من يُقتل..، يُغْتَصبُ من يُغتصب ويُعذّب من يُعذب...!!

وأردف ابن عربان يقول:

«وما زالت تدور بنا الأيام..، من ظلمة لظلام في واقع ميؤوس..، ومستقبل تعيس..، تتفنن في الحديث عنهما الصحف والأقلام...

واقع لا نجيد فيه إلا الفرجة على قتل الأبرياء، بيع الأطفال ومستقبل الأطفال، وانتهاك الحرائر ولا نحسن فيه إلا الخطب الثائرة العاصفة على المنابر...
فلم يعد العالم يسمع منا كلمة حق تقال...
أو وقفة لاحترام النفس أو وحدة الصف توجب لنا الاحترام..

لم يعد لنا إلا السباق فرادى على إرضاء السادة والتزاحم على الفتات..، وإظهار أقصى حدود القدرة والجلد على تحمل السياط واللطمات...، والتهليل للغزوات...

ثم ضرب الكف بالكف لدى الحديث عن مستقبل الأطفال في الأوطان...

مستقبل لم يعد لنا فيه إلا رجاء اللطف من رب العالمين وطلب الرحمة والأمان...

توقف ابن عربان برهة عن الحديث ليستريح ثم شرع يقول:

«وفي غمرة تردي الأوضاع..، وتوالي المآسي وفي دوامة الإحباط والانتكاس...، لم أدر إلا والبريد يحمل لي خطاباً في قرطاس..، رث الهيئة ممزق الأركان من طول إهمال وتكديس...

فكأنما خاض الخطاب وحده مظاهرة تعاطف مع حال الديار التعيس...، أو أضرب حيناً عن الوصول استنكاراً لما أصاب النفوس من إحباط وتيئيس...!

عنوان المرسل شبه مطموس..، وعنواني فيه لم يبق منه إلا الرموز..، تشير إلى صندوق البريد في البلد السعيد....

فتحت.. فإذا خطاب من أبي العيال أرفق معه صوراً له وللأطفال...، تبدو خلفهم شامخة مهيبة قمم الجبال في الشمال...

تأملت الصور على عجل..، فصافحتني وجوه تعطرت بسمرة الشمس وأشرقت بعطر الشباب...

حتى أبا العيال، وكان في إحدى الصور واقفاً يعانق بعض الأزهار، بدا شاباً وكأنه قد عاد في عمره للعشرين.. بعد أن كان عهدي به ـ قبل عامين شاحباً من وطأة السنين مطأطئاً من تعاقب الهموم...

وأردف ابن عربان يقول:

«ولم أشأ أن أفتح الخطاب وأنا على الباب...، فخطاب من أبي العيال طويل.. وصل بعد غياب يحتاج إلى جلسة هادئة في ركن ظليل.

حديث السطور

يشفي الصدور

حدثنا ابن عربان قال:

«جلست في ركني المعتاد، أتأمل الصور من جديد، صور أبي العيال مع الأطفال، صور تحمل البهجة للنفس في غمرة اليأس...
وتنقل الشعور بالفرحة والإشراق للقلوب التي طال بها الأسى وعصفت بها الأشواق، وتشيع عبير الحبور في أجواء لفهاً ضباب العسف والجور...

وجوه ـ في الصور ـ تنطق بالسعادة، تغمرها الفرحة بعناق الطبيعة الخلابة...
تحيط بها من كل جانب: سماء صافية إلا من سحابات الأمل، وأرض زاهية بابتسامات الندى والطلل، قمم خضراء وارفة، سواق وعيون تنهمل وتفيض نضاخة وجارية.

وأردف ابن عربان يقول:

«تأملت الصور مراراً قبل أن تمتد يدي إلى خطاب أبي العيال..
كنت أستمهل نفسي في فتح الخطاب والنظر فيه..، كالطفل يطيل تأمل الحلوى، يقلبها بين يديه..، قبل التهامها... فتزداد مع اللهفة متعته..، وتتسع مع الشوق فرحته...

فتحت الخطاب، فطالعني تاريخه الذي يشير إلى انقضاء شهور قضاها سائحاً في دهاليز البريد البعيد والقريب...
وأدركت علة ما آل إليه من رثيث حال وطول إهمال عندما لمحت على غلافه الرث علامة تشير إلى أنه قد فتح بمعرفة الرقيب.
فلا أدري كم رقيب تداول فتحه والنظر فيما يكون قد انطوى عليه من أسرار تلحق بالأمن القومي أشد الأضرار...!!

بدأ الخطاب باسم الله وبالصلاة والسلام على رسول الله...
حاملاً شوق أبي العيال الكبير لي ولكل الكرام في مجلس الكرام...

باثاً صادق الود والإخلاص لكل الأهل والناس...

مستعيداً ذكرى الأيام السعيدة مع الصحبة الحميدة...

وقصص الاستثمار الحلال وغير الحلال..، في الديار وخارج الديار.. بالين والدولار...

مما كان لأبي الهول فيه صولات وجولات طوال..، لم يبسم له فيها الجد ولم يسفعه الحال..،

طالباً من الله الرحمة لأبي الهول..، مستأمناً أن نطيل الجلوس على الشاطىء الطويل..، وأن نعيد النظر في الرمال..، لعل وعسى أن ينفرج الشاطىء أو تفصح الرمال عن أثر أو شاهد يحي الأمل في ما انتهى إليه أبو الهول من مآل...

وتابع ابن عربان يقول:

«وجدتني لا أقدر على كتمان العبرات مع ما أثاره خطاب أبي العيال بي من خواطر وذكريات..

وما حملني به من سلام ينطق بالصدق والوفاء للربوع التي عاش فيها ردحاً من العمر أنيساً مؤنساً..، جاداً ومخلصاً...

للشواطىء التي شهدت حبو الطفولة...، للأفنان التي طربت بعبث الصغار..

لصفوة الناس في مجلس الكرام الأنيس...

للمحار في الشواطىء التي رحل إليها أبو الهول يحدثها عن لعبة الأقدار...

ثم انتقل ابن عربان إلى القول:

«شرع خطاب أبي العيال بعدها يسرد مجمل أخباره بعد رحيله عنا..

كيف حاول العيش في المدينة التي غادرها قبل سنين ـ في رحلته إلينا ـ هادئة ناعمة..، وديعة آمنة...،

فعاد إليها وإذا بها كأنها تتهيأ ليوم الحشر يتخبط بها البشر كمن أصابه الشيطان من المس...

يتخاطفون الأرزاق بلي الأذرع ومسك الأعناق..

بالغش والتدليس. . ، بالهوان والنفاق. . .
فلم يطق العيش في المدينة. . .
فارتحل إلى أرض له في الجبال. . .
موروثة من أجيال. . .
فأصلحها بعد إهمال. . .
واستقر به فيها الحال. . .

قال ابن عربان:

«وكان مما جاء في خطاب أبي العيال في وصف تلك الحال قوله:

«ضربني الوجوم ـ يا ابن عربان ـ وأنا أقلب وجوه القوم. . ، وأرقب حولي الأنام. . في شوارع وأسواق المدينة الحزينة تتدافع كالأنعام. . .

كان الناس يجرون فيها وكأن خلف كل منهم يداً تمسك عصاً غليظة أو سيفاً قاطعاً لا أحد يدري متى يهوي على رأسه أو يصفع قفاه. . .

نظرات حمراء حادة. . ، جباه مقطبة. . ، وأفواه لا تكاد تميز فيها إلا أنياباً تتهيأ للإفتراس. . . ماذا جرى للناس. . .؟؟

يتكدسون من أجل رغيف أزرق على شبابيك الأفران تكدس الذباب على بؤر القيح. . أو بقايا العظام تتصارع عليها كومة من صغار الفئران. . .!!

يتدافعون ويتناوشون على أبواب المجمعات ـ توزع المخصصات ـ تدافع الكلاب الضالة على الجيف أو بقع المخلفات. . .

يتخاطفون ـ بعد ضرب ونزاع، وتوسط وصراع ـ فاسد المعلبات. . النفايا والفتات. .

يحملونه ويجرون غانمين كمن يحمل غنائم حرب تحرير بعد طول هوان وانتكاس. . .

ماذا جرى للناس. . ؟؟

ترك الناس أرض الله الواسعة وانحشروا في زحام المدينة..
استبدلوا سماحة الريف وطيب العطاء بهباب المدينة وضيق الرجاء...، بأفواه مفتوحة وأيد كليلة..، بالفقر والاستجداء..، بالنصب والافتراء...
تركوا العمل بما يرضي الله والأنام...، واستكانوا لعيش الأنعام...

استغنوا عن ثراء الأرض بضروب من غنى الأوهام..، لا يروي ظمأ ولا يوفر الطعام..

استقسموا بالأزلام..، تعاطوا من ضروب العيش والرزق كل ألوان الحرام..

أتقنوا الغش والتدليس..، الرشوة والفساد..، الجري وراء تكديس الفلوس.. حتى غدا الناس ـ معظم الناس ـ في البلد الذي كان عفيفاً.. من ضعاف النفوس.

خلفت المدينة وعهدي بصباحها اللطيف يلتف بضباب خفيف يخلف الندى على دروب النرجس وتلال الياسمين..
عدت الآن لأجدها تتلفع بالهباب صباحاً وعند الغروب هباب يحرق جذور النرجس ويبتر عرائس الياسمين..

خلفت المدينة تحتضنها غوطة غناء.. وعدت إليها وقد غدت غابة من الاسمنت تعتصرها وتخنقها المحلقات...

كنا نلعب صغاراً في حواري المدينة المعبدة، يرشها عمال النظافة بماء القرب..، ويكنسونها بمكانس القش والقصب..، فنبحث عن الغبار في الدروب فلا نجد إلا العطور...

كانت شوارع المدينة المرصوفة بالأناقة موصوفة...، وبالزهور مصفوفة..، بالغابات محفوفة..، بالدعة والأمان معروفة...
فإذا بها تبدو مذعورة منتوفة، مبتلاة بصفوة متخمة من محدثي النعمة...، استبدلت بزهر الطبيعة زخرف الجحور...

واستأصلت خيام الياسمين لتبني بالاسمنت القصور..
استعاضت عن الحدائق الغناء والمقاصف المعهودة بفنادق الدرجة الأولى الموصودة المعدودة...

قال ابن عربان:

«واستطرد أبو العيال في الخطاب يصف الحال ويقول:

«رحت، في زحام المدينة، أقرع الأبواب..، أبحث عن مأوى بعد طول غياب..
أحلم باقتناء دار أقطنها بما أبقت لي برامج الاستثمار المنحوس من فلوس كدحت في جنيها خلال رحلة الاغتراب...

كلفت الأصحاب ورجوت الأحباب...، وما تركت سمساراً من سماسرة المدينة ـ وهم أكثر مما فيها من الأفران أو الأسرة في المستشفيات ـ إلا تقربت إليه بأعذب وأحلى الكلام... عله يحث المسعى في إيجاد ما أنشده من مأوى...

وطال أمد البحث الذي لم ألق فيه إلا يأساً بعد يأس...، وسخرية السماسرة الكبار من حديث أنشد فيه شراء دار بمال يحصى بالآلاف لا بالملايين..

وتزداد السخرية عندما يعلم السمسار أنني كنت مغترباً خارج الديار...، فالمغتربون موصوفون بالثراء الكبير.. وبأرصدة تثير الخيال من ينٍ ودولار...

وتزداد السخرية ويعلو الضحك إذا ما اضطررت ـ دفاعاً عن قلة مالي ـ أن أشرح ما أصابني من نحس الاستثمار مع برامج أبي الهول في الديار وخارج الديار...!!

واستمر الحال على هذا المنوال عدة شهور...
كدت أفقد معها الأمل في المأوى المنتظر..

ولشد ما كانت فرحتي كبيرة عندما فاجأني (أبو البدور) وهو سمسار مغمور في

دكان ضيق على الناصية محشور...
قصير القامة منتفخ الأوداج..، سريع اللفتات والنظرات...
نشيط رغم ثقل وزنه وقصر أطرافه...
كثير الكلام..، يدعي الإلمام بكل العلوم...
لا يبخل عن ذاته لحظة بحديث الفخر والإطراء من نجدة الملهوف ونصرة المظلوم...
من استقامة في حمل الأمانة..، وأمانة في الوساطة والقوامة..، فهو شديد الخشية من الحساب في يوم القيامة...
مكثر للصلاة مطيل..، حريص على الصيام..، يؤدي الفروض والأنفال...

أسرَّ لي (أبو البدور)..، وهو يلهث من الحبور..، بأنه قد وجد لي داراً تحقر أمامها الدور.. وتنذر من أجلها النذور...
وأننا لا بد من أن نعاين الدار في ذات النهار وأن نجلس وصاحبها «للبازار» في الغد دون انتظار...

دعانا أبو البدور للبازار بعد أن عاينا الدار
دار صغيرة في أطراف المدينة تدور في فلك المليون..
قرأنا الفاتحة..، ودفعنا العربون.. وقد حرص أبو البدور أن يكون نصف مليون... حتى نضمن ـ كما قال ـ البيع الثمين...

وقبض أبو البدور من رأس الكومة، نصيبه من العمولة..، وخرج يفرك كفيه للإنتصار الكبير الذي حققه للعبد الفقير..

وأخذ يلمح بعدها إلى ما تكبده من عناء وما عاناه من نصب في إبرام هذا البيع «اللقطة» الذي يبدو في نظره أثمن من اقتناء الذهب

وأدركت المقصود من عناء أبي البدور فنفحته بضعة آلاف أخرى فوق ما تقاضاه من عمولة جزيلة عن البيع.. وتوكلت على الله.. فالمال مع أبي البدور لا يضيع...!!

وجلسنا نرقب الأجل المسمى لإكمال البيع والتسجيل وحزم المتاع والترحيل..، إلى الدار التي فرغ صبر العيال وأم العيال فيها شوقاً للاستقرار...

وأخذنا نطوف في الأسواق..، تلفنا الأحلام والأشواق..، لكل جديد يلمع..، وأنيق يسطع..، من الأرائك والفراش..، والوسائد من أجود القماش

نفرش غرف الدار في الخيال..، بأحسن ما يجود به الحال...

ندفع عربوناً بعد عربون لكل ما نستلطف من الأثاث الثمين...

حتى حل الأجل الموعود..، وجاء اليوم المعقود.. يوم تسجيل الدار..، وإنهاء القيود..

قصدت مقر أبي البدور..، فما وجدت إلى الصبي الصغير يخبرني أن المعلم قد قصد الشاطىء المعمور..، ينعم بلطف الأمواج في الصيف الوهاج

عدت أتقصى هاتف بائع الدار.. طلبته..، فأجاب بالترحاب...
دعوته لإكمال البيع والتسجيل...
فتلعثم وأجاب بأن له شريكاً في الدار خارج الديار.. ينتظر أوبته بعد غياب...
وأن الأمر لن يستغرق إلا أيام يعود بعدها الشريك فنستكمل العقود وتسلم الدار من الباب...!!
فعدت أقول لا حول ولا قوة إلا بالله..، وأرجو أن يكون في التأخير خير...

ومضت الأيام..، أعقبتها الأيام.. لا أبو البدور عاد فيها من الشاطىء المعمور..، ولا شريك بائع الدار شرف الديار...

فشددت الرحال إلى الشاطىء علّي أقف من أبي البدور على حقيقة الأمور..
لم يخب ظني..، فقد وجدت أبا البدور مختصراً إطاراً أسود..، يقوم به الموج ويقعد..، كالكرة على سطح الماء...

يصيح مع كل موجة وسط مجموعة من الأطفال يرددون خلفه كالكورال: هيلا هوب. . ، هيلا هوب. . .
وجلست على الشاطىء أرقب المشهد الطروب. . ، أنتظر الغروب. . ، وأردد مع المجموعة من بعيد: هيلا هوب. . ، هيلا هوب. .

اختفت الشمس وراء الأفق وأظلم الشفق. . ، وبدأ أبو البدور يتمخطر خارجاً من المياه يتقدمه كرشه الكبير ويحيط به الصغار. .

(ها أبا العيال. . ، أنت هنا. . ، لماذا لم تشاركنا متعة العوم. . ، إنها المتعة بعينها بعد لفح الهجير وزحام العمل الكثير. . ، هل تنزل قريباً من هنا. . ، لماذا لم تخطرنا. . .
تعال. . ، تعال يا أبا العيال. . ، فنجان من الشاي مع بوادر المساء ينسيك كل العناء. . .)

ولم أَدَعْ أبا البدور يسترسل في الترحيب. . ، شرحت له الحال وأفهمته أنني لم أرد الشاطىء سائحاً متنزهاً. . ما أتيت إلا رجاء توسطه إكمال ما بدأناه في عقد عقدناه. . ومنزل شريناه بجهده الكبير وسعيه المشكور. .
فوعد أبو البدور ببحث الأمر من الغد دون تأخير وعدت أرجو من الله العلي القدير. . ، التهوين والتيسير. .

قال ابن عربان:

«واسترسل أبو العيال في خطابه يصف ما حدث بعد ذلك فيقول:

«طال انتظاري عودة أبي البدور. . .
وعندما أخبرني الصغير في المقر المشهور بعودته بالأمس. . وأنه ينتظر قدومه للدكان دون تأخير. . ، جلست أنتظر حتى أَهَلَّتْ طلعة أبي البدور البهية وبادر بالتحية. . .
ها أبا البدور. . ، كيف الحال. . ، وما هي الأخبار. . ، أخبار عقد الدار. . ؟؟
فرد أبو البدور بوجوم واقتضاب بما يفيد أن صاحب الدار قد أغلق دونه

الباب..، ولم يحظ منه بجواب..، وأنه قام بتوسيط بعض الأصحاب ففهم منهم أن صاحب الدار يشعر بغبن شديد.. بعد أن ارتبط ببيع الدار دون أن يستشير أسواق المال.. عن حال الدولار.. الذي ارتفعت أسعاره وطار بعد بيع الدار..، وأنه ـ أي صاحب الدار ـ يريد أن يعاد تثمين الدار بالسعر الجديد للدولار العتيد...!!

وطفق أبو العيال في خطابه يقول:

«تركت أبا البدور يسب ويثور..، وألقيت على عتبة الرصيف أمام دكانه المغمور أحلام اقتناء الدار...

سرت أترحم على أبي الهول.. وأتذكر لعبة الين والدولار...

أين أنت يا أبو الهول.. تعال لتشهد لعنة الدولار وقد لحقتنا للديار...

أين أنت يا أبو الهول لترى كيف استعبد الدولار الكبير وأفسد الصغير...

أين أنت يا أبا الهول لترى بصمة الدولار وقد طبعت جباه الجباة فمحت سمة الصلاة...، أين.. أين التقاة..؟؟

وأردف أبو العيال في الخطاب يقول:

«خلفت أبا البدور دون عودة..، وتركت أمر صاحب الدار للجبار...

ووكلت من الأصحاب من يسعى لتحصيل العربون بالتقسيط إن أمكن بعد أن سدد به صاحب الدار الديون وفرج عن حاله المرهون..

أدرت ظهري للمدينة الحزينة..، وشددت الرحال صوب الجبال..، دون مال..، إلى أرضي الموروثة التي أقسمت أن أعمل بها بيدي بعد طوال إهمال..

بررت بقسمي..، وجد معي العيال..، فما دلف الصيف حتى كانت الأرض تستعد للابتسام بالزهور... وتبشر بيانع الثمر.. وأبرك الغلال

وهكذا يا ابن عربان

عدت إلى الأصول
فما كان أغناني عن جولات الاستثمار. . .
وعن غربة الديار. . .
هنا يا ابن عربان ـ في الأرض ـ تلقى حقيقة الثروة وصادق المال. . .

ما لي ولزحام المدينة
وما كان أغناني عن برامج الاستثمار اللعين. .
فالثروة فينا يا ابن عربان. .
في ترابنا الثمين. .

تعال يا ابن عربان لتشهد بركة الأرض عندما تثمر بالجد وترد جميل العناء بوافر العطاء. . .

تعال لتشهد كوخ الطين وقد غدا داراً تبز كل دور المدينة مما يثمن بالدولار الثمين ويثقل أصحابه بالديون والرهون. .

أستحلفك الله يا ابن عربان أن تأتي لزيارتنا لترى بنفسك حلاوة الانتصار. . . فلا تطيل بنا الانتظار».

وهكذا. .، قال ابن عربان، ختم أبو العيال خطابه بدعوتي للزيارة. . وكانت دعوة في وقتها. .، فمن بين كل الأحوال التي تلفنا والأخبار التي ترمي بنا من إحباط لإحباط. . .
كانت دعوة أبي العيال تخرج النفس من لوعة الإحباط لفرحة الانتصار. . .
فآليت على نفسي أن ألبي دعوة أبي العيال لزيارته هناك في الجبال.

المال الحلال

في

ثرى الأجيال

حدثنا ابن عربان قال:

«ما زلت أستعيد الخواطر والذكريات مع خطاب أبي العيال...

ما فات من حال الحياة، تسرع بنا الخطى فما ندري في حلم نحن أم في حقيقة.. في يقظة أم في سبات...

حرصت أن أحمل أمانة أبي العيال...
فرحت يوماً بعد يوم أسرح مع الخيال على الشاطىء الطويل...
أجلس إلى الرمال ساعات طوال...
فأرى على صفحة الماء الصقيل صورة أبي الهول تداعبها رعشات النسيم...،
يذهب بها مرتد الموج ويعود...، ناطقة ضاحكة كأنها تقول:
«تلك هي الحياة...»

حملت خطاب أبي العيال مع صور الأطفال إلى مجلس الكرام...
يقرؤه الأصحاب ويتأملون الأحباب...
يذكرون خوالي الأيام..، يترحمون على زمان مضى ويستسقون الله عهداً انقضى...
يتساءلون ـ في المجلس ـ عن اليوم والأمس..، أما كان الأمس أرحم وأنعم..؟؟
ماذا عن مستقبل الصغار في الغد القريب..؟؟ غد لا يبدو لنا منه إلا حالك الظلام...»

ثم انتقل ابن عربان إلى القول:

«وما زالت دعوة أبي العيال زيارة الشمال تطل من جعبة الأماني تحث الشوق الدفين وتلهب الحنين...
حتى أبرمت النية على الترحال إلى الجبال مع الربيع.. فما كنت ممن يعتاد البرد أو يحتمل الصقيع...
وما كاد الدفء يشيع ـ بعد رحيل ذاك الشتاء ـ حتى أبرقت لأبي العيال أخطره

القدوم إليه راجياً ألا أثقل عليه...»

قال ابن عربان:

«كان لقاء أبي العيال في المطار لقاء اختلطت فيه الضحكة بالدموع والحسرة برفيف الفرحة في حنايا الضلوع...
شغلنا حديث الشوق، وتوالي الخواطر في الطريق تقطعها بنا سيارة أبي العيال الصغيرة برفق وبراعة، فما ندر إلا والسيارة تلف بنا منعطفات تضيق..، وترقى التلال وتتسلق... تسلق المجرب الواثق العتيق...

وما هي إلا بضعة أميال حتى طالعتنا أم العيال بزغرودة ترف رفيف وارف الظلال..، ترحب بصديق الأيام الخوالي..، وتشجع العيال على الإقدام للترحيب بالضيف الغالي...، فاجتمع حولي الأطفال يرحبون بالضيف الجليل...

قادتني المجموعة السعيدة على درب بالحصا مفروشة..، بأساور الجوري معروشة..، وبعرائش الياسمين مرشوشة..

يداعب براعمها رفيف أجنحة النحل..، وتطرب لسمارها من الدوري والشحارير الفنن..، حتى أدركنا مصطبة الدار..، دار الطين..، تلك التي وصفها لي أبو العيال في خطابه..، فجعلها ـ لديه ـ أثمن من دور المليون تثمن ـ في المدينة ـ بالدولار اللعين..

توزعنا الجلوس على أرائك المصطبة الوثيرة..، وشرعت أعب من عبير الأرض والورود..، وأمتع النظر من وجوه العيال وقد أشرقت بالحمرة على الخدود...

كان عهدي بأطفال أبي العيال ـ هناك ـ أنهم دائموا المرض شديدو الحساسية لكل عرض..، ذابلوا الوجنات..، يشكون الوهن والألم من كل الجهات
وإذا بهم وقد أشرقت بالعافية الوجوه... وأزهرت بالصحة القدود وأينعت مع البهجة النهود

قلت ـ ما شاء الله ـ أراك يا أبا العيال والأولاد في أحسن حال والصحة عال العال..

هل اهتديت إلى طبيب قدير..، هل العيادات عندكم هنا في الجبال قد أصابها الإصلاح والتطوير فغدت متقدمة الأطوار..؟؟

عهدي بك ـ هناك عندنا ـ لا تني تبحث بين الأطباء عمن ينقذ الأطفال من تحسس عضال...، أو مما استعصى من السعال...، أو ما أزمن من إمساك أو إسهال..

ضحك أبو العيال وحمد الله قائلاً:

«وحياتك يا ابن عربان لم نذهب لطبيب منذ قدمنا الجبال...

طبيبنا ـ هنا ـ هذا الثرى نعمل فيه بجد وإقدام...، والمدارس يذهب إليها الأطفال سيراً على الأقدام..، وما نأكل من طازج الطعام..، لا معلبات.. لا «فروزن».. لا أصباغ.. لا ألوان..

رغيفنا من قمح هذه الأرض نخبزه على حطب التنور..، والعسل تلك مناحله..، والثمار شرعت في الانعقاد على الأشجار..، والخضار من كل لون نقطف منها كما نهوى كل حين..

مكيفنا دار الطين...، نأوي إليها في حر الصيف اللافح فلا نمل من لطف نسيمها البارد العليل...، ونلجأ إليها أيام الثلج والبرد الشديد..، فنلقى مع جمر الموقد في الركن المعتاد حضناً من الدفء السعيد...

وأشرقت عينا أم العيال بفرح غامر وهي تضيف إلى الحديث نغمة حلوة تصف فيها نشوة الإنسان عندما يحيا في أحضان الطبيعة وينعم ببركة السماء...

يقلب التراب...، يزرع الحبوب...، يرقب النبت يعلو..، والندى يترقرق..، والثمار تنضج..، النحل يسعى..، والعسل يقطع...، وكل ما حولك يشدو ويسطع...

وتبارى العيال في وصف المنجزات...، ووعدني كل منهم أن يريني ـ على

الطبيعة ـ جانب الأرض الذي تكفل رعايته..، ووافر الثمر مما اعتنى بسقايته...

ثم شرعنا ـ في مجلسنا ذاك ـ على مصطبة الدار نتبادل ألطف الذكريات..
ونتناول بين الحين والحين ما لذ وطاب..، من بواكير ثمار الصيف القادم على الأبواب..، ونرشف من أقداح الشراب.. ما ادخرته أم العيال من ثمار الليمون والبرتقال...

تذكرنا مجلس الكرام في سالف الأيام
وترقرقت عينا أبي العيال بظلال الدموع لذكرى قصص الاستثمار مع برامج أبي الهول الصريع..

التضخم الذي أكل نصف المال في الديار... وألهب مع المضاربة والاحتكار أثمان العقار..، حتى غدت تثمن بالدولار...

آمال عقود الذهب..، «زعزوعة» وفنون الاحتيال والنصب...

لعبة الكبار في أسواق الين والدولار...

قرارات التجميد والمصادرة..، عن قمة الأمم صادرة..، بحق أبي الهول الذي اكتشف أسرار اللعب وبز اللاعبين..، واستقل بالقرار..، فاهتز نظام الكبار...

أبو الهول في الأفق البعيد على الشاطىء السعيد يحدث المحار عن جنون الاستثمار بالين والدولار..، عن لعبة الأقدار...
عن النظام العالمي الجديد..، وقرارات الأمم..، تصدر عن مجمع الأمم..
حيناً صارمة عالية الهمم..، سريعة البتر والجزم...
وحيناً مترددة مطاطة محسورة القوة والعزم...

وأردف ابن عربان يقول:

«طال بنا على المصطبة أمام الدار المقام..، وبدد كمال البدر مسدول

الظلام...
وما زال أبو العيال يردد دعوته لي أن أدخل الدار فأنام.. وأستريح من عناء السفر وطول الحديث والكلام...
لكنني ـ قال ابن عربان ـ في جلستي تلك على المصطبة..، كنت في أعذب ممن تلفه في المنام أرق الأحلام...
لذلك كنت أكرر رفضي ترك هذا المجلس الأنيس..، وأجد في الذهاب إلى النوم خسارة لأطيب ما تشتهيه النفوس...

نسيم عليل، ياسمين ظليل..، وبدر يطل مع الأنسام من بين الأغصان..، يغمز السمار ويلهب حماس كروان الليل فيطرب بكل ألوان الألحان..

استأذنت أم العيال...، وقام معها الأطفال استعدادا: ليوم تال وموكب من الآمال...
وبقيت مع أبي العيال..، أتابع حديثه يصف الحال...
يترحم ـ نادماً ـ على زمان قضاه مغترباً يجمع المال ليضيع...، لا يسمن ولا يغني من جوع...، والمال هنا بين يديه في الثرى..، يغني الورى

يبذل الجهد هناك دون سميع...، ويثمر الجهد هنا لا يضيع...

يصدق العزم هناك، يحسن الصنيع...
يشحذ الهمم..، دون شفيع...
فالناس هناك تعودوا النظر خارج الديار...
لهثوا وراء لعبة الاستثمار.. وأصابهم المس وهم يجرون خلف شيطان رجيم...
والخير في الديار عميم..، والرزق في الدار بركة ونعيم...

قال ابن عربان:

«وما زال أبو العيال يصف لي ميسور الحال..، وصالح الإعمال..، والليل يتقدم بنا رقيقاً ناعماً يعز عن الوصف وينأى عن الخيال..

وآل حديث أبي العيال بعد ذلك إلى شيء من التنهيد.. كان يبدو أنه يحاول به أن يختتم الحديث ليقول

«الحال كما ترى يا ابن عربان بألف خير والحمد لله.. لا يشوبها إلا ما يشاع من لغط يدور حول (مختار الديار)...

عن أصداء سياسة يقودها صديق صدوق للضابط الكبير من جند المختار...

صديق يدعي التجارة ويعقد المريب من الصفقات..

يستورد الغذاء المجمد والمعلبات..

يضارب في الأرض والعقارات...

يبيع ويشري ما ندري وما لا ندري

يغدق على الأصحاب في دوائر المختار الهبات..

وعلى الضباط والجنود... وعلى الجمارك في الحدود...، المنح والأعطيات...

فيفتح له موصود الأبواب..، وييسر له عسير المعاملات...

وأردف أبو العيال يقول:

«قيل إن صاحبنا هذا ـ تاجر المعلبات والعمولات ـ قد أصابه الضرر من نتاج الأرض والثمر

ذلك أن قدومي مع العيال إلى الجبال..، نفلح الأرض ونجني الحبوب والثمار..، آثار حمية الجوار كل الجوار..، ممن كان قد هجر الأرض واعتاد التسكع والتسول لدى الضابط الكبير من جند المختار...

ولم يكن الضابط الكبير ليبخل بالأعطيات..

يأخذها الناس ليشتروا بها ما استورده صديقه من غذاء مجمد ومعلبات...

مستغلين في ذلك كرم المختار الذي راح يستدين...

وميزانية الدار وقد غدت من الإفلاس قاب قوسين...

عاد الجوار ـ ممن اعتاد التسكع أمام دار الضابط الكبير ـ إلى الأرض وما هي إلا

شهور قليلة حتى اخضرت الأرض حولنا وجاء الحصاد بالخير العميم
شعر الناس بلذة الجهد يثمر.. وببركة الأرض تعطي..، والكرامة تعود..
فتركوا التزلف للضابط الكبير...
وزهدوا بالمستورد من الطعام...
وأقلعوا عن المعلب من اللحوم والأجبان والألبان
واستغنوا عن المجمد بالطازج المجدد..، وعن المعلب بالجديد المجرب...
فما هي إلا شهور حتى أصابت بعدها تاجرنا الذي كان رابحاً بجهالة الناس وكرم المختار أزمة تصريف حادة... بات معها موقوف الحال بالخسارة مهدد..، وبالإفلاس وضياع المال موعود...

وأردف أبو العيال يقول:

«لذلك يشاع ـ يا ابن عربان ـ أن تاجرنا ذاك ما زال يغري المختار من خلال الضابط الكبير بإصدار قرار يحظر فيه زراعة القمح والخضار..، أو إنتاج العلف والألبان والثمار..، واستبدالها بزراعة الأقطان..
ينفرد التاجر وصديقه، بل قل شريكه، الضابط الكبير بشرائها بأسعار محددة..، لتصدر بشكلها الخام..، لمصانع الغرب الهمام...!!
فيشتري بثمنها مخلفات الطعام من المجمدات والمعلبات...
يبيعها بما شاء سن أسعار للغفلة من الأنام
من جند المختار والأعوان..، أو منتجي القطن ـ قسراً ـ دون الطعام...!!

لكننا ـ قال أبو العيال ـ لا نعتقد أن مختارنا ذا العقل الراجح سينصاع لسياسة عشواء يقودها مغرض ذو قصد للثراء غير المشروع واضح...
وسعي مفضوح لكسب يرهق الديار بوخيم الآثار...

قال ابن عربان:

«وبدوري طمأنت أبا العيال بألا يشغل البال بخواطر بعيدة الاحتمال..، ومخاوف لا داع لها..، فالأمور ستجري في مجراها الصحيح بإذن الله...

ورجوت وقد غلبني التثاؤب أن تأتي الأيام بكل الخير لأبي العيال ولكل من جد وعمل من الجوار. . .

وقبلت عندها دعوة أبي العيال لي دخول الدار لأنام. . .
قمت متثاقلاً. .، أود لو بقيت على المصطبة لأنام في رفقة البدر وصحبة الأنسام. . .
لولا لسعة البرد اللذيذ التي جعلتني أحوج لدفء الدثار تحت سقف الدار. .
فدلفت إلى السرير يرافقني شعاع الضياء من نافذة قريبة تركت أحد مصراعيها مواراباً تنقل لي النسمة من خلاله عبير الأرض يضمخها الندى. .، ومن الياسمين أرق الشذى. . .

* * *

أجود العطاء

من

فضل السماء

حدثنا ابن عربان قال:

«مكثت لدى أبي العيال أياماً سعيدة موفور الصحة هانىء البال. . .
أقضي ضحى الأيام بين وارف الظلال. . .
وفي الأمسيات أرتاد التلال تطل على المرابع الخضراء والحدائق الغناء. .
تختال في أرجائها الجداول. . . وتصدح على أفنانها البلابل. . .
وفي الليالي. . ، كانت جلستي على مصطبة الدار أروع الأطوار. .
نتمتع بالحديث يدور. . .
نترقب العشاء مع الطازج الأسمر من خبز التنور
زيت وزعتر. . ، أجبان وزيتون. . . ، جرجير وبصل أخر. . .
فول مطرز وبالتوابل معطر. . .
مقبلات ومتبلات مما تجود وتتفنن أم العيال في صنعه من الطيبات. . .

ننام مع الأنسام تحمل عطر الأرض وعبير الورد وأرق الأحلام. . .
لنصحو مع الإمام. . ، في فجر الصلاة. . ، نتمشى للجماعة. . ، والدروب على التلال من حولنا تقطر بأطياف الساعين المبكرين للصلاة. .

نؤوب مع تباشير الصباح وبوارد أشعة الشمس. . ، وعبير الندى على صفحة البيادر. . .
فنجد أم العيال وقد أعدت أكواب اللبن وأجفان القشدة والعسل مما تطرب له البطون وتنعم بمرآه الأجفان. . .

لعبت مع العيال ما شاء لي أن ألعب مستعيداً عهد الأماني العذاب وشقوة الشباب. . .
تسابق العيال في التطوع ليكون كل منهم لي دليلاً يقودني لأجمل الأركان من البستان. . .
أو ليطلعني على أحلى الزهور. . . ، أو يسقني من أعذب العيون. . . ، أو يأخذ بيدي ليقطف لي بواكير الثمر من قمم الشجر. . .

زارنا الجوار يرحبون بي لدى أبي العيال. . ، وزرنا بدورنا الجوار مع أبي العيال نحاط بالترحيب والإكرام ونلتقي بأطيب الناس الكرام

أناس ما فتئوا يشيدون بجهد أبي العيال الرائد. . .
الذي كان له فضل القدوة الحسنة في إعمار الأرض وإثراء الثرى والإهتداء إلى أول الخطا على الدرب. . . ، درب تحرير الإنسان من ذل الاستجداء وظلم المرابين. . .

وكان الحديث عن بطانة «المختار» يحتل جل ما يدور في جلساتنا من حوار. . .
الكل يحذر ويخشى من سعي الضابط الكبير وشريكه تاجر المعلبات ومفشي العمولات لإقناع المختار بسياسة إنتاج القطن بدل الحبوب والثمار. . .

تلك إذاً ـ كانوا يرددون ـ عودة للرغيف الأزرق. . ، للطوابير أمام الأفران تذل إنسانية الإنسان
عودة لتسول المعلبات والجري وراء المخلفات. . ، واللهاث خلف الحصص في الشوارع والطرقات
عودة إلى براثن المهربين. . . ، وأنياب تجار الأزمات. . .

محصول القطن يسلم لأعوان الضابط الكبير بأبخس الأثمان. . ، فلا يفي بتكاليف الحرث والزراعة. . ، فيهجر الناس الأرض ليتسكعوا أمام دور المختار

تطبع النقود لتوزع على المتسكعين. . . ، ترتفع الأسعار. . ، وتزداد الديون. . ، ويغنم التاجر الكبير والضابط الخطير. . ، وتفتقر الأوطان. . .

ذاك هو نتاج ما يرمي إليه الضابط الكبير وما يرجوه التاجر الأثير. . فهل يستجيب المختار. . .؟؟

هل تعود الأحوال إلى الوراء وتسير العجلة إلى الخلف. . ، بعد أن تنفس الناس الصعداء وغدت الديار تبشر بخير العمار والنماء. . ، بعد أن حلت على الأرض ـ بجهد الأبناء ـ بركة السماء. . .؟؟

كان الجوار، كل الجوار، ممن جلسنا إليهم مع أبي العيال لا يتصورون أن يقبل المختار باتخاذ مثل هذا القرار. . .

وأردف ابن عربان يقول:

«ولكن يبدو أن فأل أبي العيال والجوار لم يطل به الزمان. .
فما هي إلا أيام، حتى صدر القرار المشين بزراعة القطن الثمين بدلاً من الحبوب والثمار. . .
وفوق ذلك فقد نص القرار على مصادرة كل ما لدى أبي العيال والجوار من حبوب البذار لتستبدل ببذور القطن التي تم استيرادها من أجود أصناف الخارج بمعرفة التاجر الأثير والضابط الكبير
وكان على الزراع أن يدفعوا فارق الأثمان بين ما يصادر منهم من بذار الحبوب الرخيص وبذور القطن الغالي الثمين. . .!!

قال ابن عربان:

«ساد اللغط بين الناس. . ، وازدادت اللقاءات في الأمسيات. . ، وتشعبت الآراء في مواجهة ذلك القرار الحساس. .
وتساءل الناس عن سر قبول المختار إصدار مثل هذا القرار. . .
وتفننوا في وصف ما تعرض له من ضغوط من الداخل والخارج. . .
من الضابط الكبير وأعوانه. .
من التاجر الأثير وخلانه وشركاؤه من خارج الديار ممن اتفقت مصالحهم على ألا ينمو الصغار

شُكِّلَتْ الوفود من الجوار وأبي العيال للقاء المختار. . ، لكنها كانت تصطدم دائماً بحاجز الأعوان. . ، أعوان الضابط الكبير. . ، تساق في ردها مختلف الأعذار فلا تصل إلى المختار. . .

طغى الوجوم على وجوه القوم. . ، وارتفعت الأكف بالدعاء إلى الله العلي القدير أن يفرج الحال

واستمر الحال على هذا المنوال بانتظار اليوم الذي تنتهي فيه المهلة المحددة للزراع لتسليم ما لديهم من حبوب البذار. . .
وانتهى الأجل الموعود دون أن يتقدم من الزراع أحد يستبدل البذار ببذور القطن تنفيذاً للقرار. .

وأردف ابن عربان يقول:

«وما انقضت ساعات على انتصاف تلك الليلة التي انتهى فيها الأجل المرصود لاستبدال البذار بالبذور حتى شاهد الزراع في أوبتهم من صلاة الفجر جحافل الضابط الكبير والأعوان تزحف صوب البستان. .
بستان أبي العيال الذي يلي ساحة المختار على أول الطريق إلى حقول الجوار. . .
جحافل مدججة مبهرجة. . .، تنظر إلى الناس بازدراء. .، تقدح من عيونها الشرر. .، وتنذر حرابها بالخطر كل الخطر. . .

قال ابن عربان:
«وما كدت وأبو العيال نصل دار الطين تقابلنا أم العيال كالعادة بأجفان الفطار. . .، حتى علا حول البستان صخب الأعوان. . .

وانطلق صوت الضابط الكبير من باب البستان يأمر أبا العيال بالمثول لديه. . .

أسرع أبو العيال داخلاً الدار وهو يقول: أنا أعلم ما يريدون والله لن يكون لهم ذلك أبداً. . .
وخرج بعد ثوان مشرعاً بندقية صيد قديمة متجهاً نحو باب البستان. . .

صرخت أم العيال. .، ضربت الصدر ولطمت الخدود. .
وجرت تعترض أبا العيال وتقسم بألا يخرج للجنود حاملاً بندقية الصيد. .، واستجارت بي مستنجدة. .، فجريت صوب أبي العيال مقسماً عليه بكل عزيز وغالٍ ألا يخطو خطوة أخرى والبندقية في يده. .
نزعت البندقية من بين يديه وناولتها أم العيال لتعود بها لداخل الدار وتفرغ منها

ومن حولها كل الذخائر..
رجوت أبا العيال أن نذهب معاً لنرى ما وراء الضابط الكبير...

أمسكت بيد أبي العيال أمشي به صوب باب البستان وقد أخذ القرع على الباب يتواتر ويزداد صلفاً..، ويزداد ويرتفع معه نحيب أم العيال وبكاء الصغار...

قال ابن عربان:
«فتحت الباب وحاولت السلام على الضابط الكبير الذي تجاهل السلام وبادر إلى أبي العيال يأمره بالعودة إلى الدار وحمل كل ما لديه من بذار وحبوب وثمار إلى دار الحكومة في الحال...

أقسم أبو العيال بدوره ألا يحمل بذرة واحدة من الديار ما دام حياً..
وانفجر في وجه الضابط الكبير يكيل من مخزون غيظه وبأعلى صوته كل ما ألهمه الله من خطاب يكشف فيه حقيقة لعبة القطن والبذار...، ونوايا التاجر الكبير..، وما سيؤول إليه تنفيذ القرار من خراب الديار...
فما كان من الضابط الكبير إلا أن أمر الجند والأعوان بتكبيل أبي العيال وخفره..
فلما وقفت دونه ـ قال ابن عربان ـ ما أدر إلا وقد قيدت يداي خلف ظهري قبله ودفعني الجند إلى سيارة «الجيب» مخفوراً محشوراً..، وحشروا معي أبا العيال الذي كان ـ والدموع تطفر من عينيه ـ متجهاً إلى الله بالدعاء الحزين على الظلم والظالمين...

استقل الضابط الكبير السيارة منفوخاً منفوشاً وجلس في مقعدها الأمامي قرب السائق متوعداً أبا العيال بأشد وأقسى مآل...

قال ابن عربان:
«ولمحت ـ من نافذة السيارة ـ التاجر الكبير قابعاً في سيارته الفارهة ـ يرقب المشهد الحزين من بعيد شامتاً مستبشراً بالكسب الأكيد..

سارت بنا السيارة عدة أمتار حتى اقتربت من المنعطف الذي يشرف على ساحة

المختار.. فما ندر إلا وقد توقف السائق بها فجأة.. ملتفتاً إلى الضابط الكبير يستفسر صائحاً: سيدي.. ما هذا.. ماذا نفعل..؟؟

قال ابن عربان:

«كان أبو العيال مكباً إلى جانبي يلهج بدعاء يكاد يكون صامتاً لا يعي ما يدور حوله..، أما أنا فقد سنحت لي الفرصة لأرى من خلال زجاج السيارة الأمامي... الجوار ـ كل الجوار ـ من الزراع وقد تجمهروا يسدون الطريق أمام الضابط الكبير وركبه الخطير...

نساء وأطفال..، شيب وشبان...

وعلى رأسهم وقف إمام الجامع الكبير يداً بيد مع راعي الدير القريب.. وقد تكاتفوا وتراصوا فغدوا جداراً بشرياً لا سبيل لخرقه ولا أمل للولوج فيه..

انتفخت أوداج الضابط الكبير بسيل من الشتائم الكبار..

ولمحت ـ من بعيد ـ سيارة التاجر الكبير وقد آثر بها الفرار..

ترجل الضابط الكبير شاهراً كل سلاح..، متجهاً نحو الجمهرة صارخاً متوعداً بما يباح من الكلام والسباب وما لا يباح..

ما انبس الناس عن شفة..

وما تراجع القوم خطوة..

بل تقدموا يحيطون بالسيارة وما تلاها من رتل سيارات ومشاة الجنود والأعوان حتى غدا هؤلاء في طوق من الناس يحيط بهم من كل الجهات...

بدأ الجمع بالتكبير..، وأخذ الناس ينددون بالتاجر الأثير والضابط الكبير ويطالبون بلقاء المختار...

أطلق الضابط الكبير أعيرة النار فوق الرؤوس تهديداً... فازداد التكبير علواً والتنديد إصراراً ووعيداً..

وجه الجنود فوهات بنادقهم إلى صدور الناس فازداد طوق الناس ضغطاً واقتراباً من فوهات البنادق في تحد كنت تسمع معه لهاث أنفاس الجنود خلف السلاح

ودقات القلوب في الصدور تفصح عن مطلق القلق في تباشير ذاك الصباح...

وما زال الضابط الكبير يسب ويتوعد...

وفوهات البنادق ترتجف مصوبة لصدور الناس..، والناس يكبرون ويندون..، ويحدقون رويداً رويداً بالركب حتى كادت الأيدي تصل للبنادق..، والصدور تنفجر بمخزون الغضب..

ومرت لحظات بطيئة قاتلة..، كان التحدي فيها سافراً والمواجهة تقف على قيد حركة قد تؤول معها الأمور إلا ما لا يعلم إلا الله فداحته...

قال ابن عربان:

«ونحن في تلك الحال...

ما ندر إلا والصفوف تنفرج عن المختار محاطاً برجال المنطقة الكبار..

يتقدم بخطى ثابتة من الضابط الكبير..

وبدون كلام ينزع من يده السلاح...، يأمره بالعودة مع الجنود والأعوان إلى دار الحكومة في الحال...

ويأمر بالإفراج عن أبي العيال والعبد الفقير المظلوم الذي راح ـ بلا نوق ولا جمال ـ ضحية واقع الحال وصحبة أبي العيال...

وقف المختار على رأس القوم عيناه تلمع بظلال الدمع المكتوم ويده تربت على كتف أبي العيال ليقول:

«بارك الله جمعكم...، جمع الخلصاء...

بارك الله الحب والعطاء...

فبالحب تُحمى الديار ويصان المختار..

وبالعطاء تنمه الديار وتحل عليها بركة السماء لا بالمال ولا بالسلاح يحتمي السلطان...

حب الرعية حمى الحاكمين قبل الجنود والأعوان.. ودون الأرصدة تجمد خارج الأوطان..

بارك الله وقفتكم..، وقفة الإنسان الذي يعمر الأوطان «يحمي بالحب والعمار

الحاكم والمحكوم».

قال ابن عربان:

«عدنا إلى مصطبة الدار..

أبو العيال على أكتاف الجوار...

وزغرودة أم العيال تقابلها زغاريد الجارات من كل حدب وصوب..

وضحكات الدموع تشفي الضلوع..

وما مضت أيام إلا وكان تسريح الضابط الكبير ونفيه خارج الديار وكبار الأعوان والتاجر الأثير حديث كل الناس...

حدثنا ابن عربان قال:

«ودعت أم العيال والأطفال

وكذلك جمع الجوار الذي قدم للسلام علي قبل أن أغادر الجبال..

رجوت للجميع خالص الأمنيات في ظل بحبوحة الجد والعطاء..

استأمنتهم الحرص على التعاون والوفاء..

ووعدت بتجديد اللقاء في أيام مقبلة يقبل عليها فيها ـ بإذن الله ـ المزيد من السعد والهناء..

ودعت بستان أبي العيال وحقول الجوار وشريط من الذكريات يطوف في خيالي: بدءاً من حكايا الاستثمار مع برامج أبي الهول التي راح فيها ضحية الين والدولار ولعبة الكبار...

وانتهاءً بإعمار الديار على يد أبي العيال...

هنا مستقبل الأطفال..، عشت يا أبا العيال...

وأردف ابن عربان يقول:

«رجوت أبا العيال ـ ونحن في طريقنا إلى المطار ـ أن يجد لي في الجوار أرضاً ألجأ إليها عماراً ونماءً وذخراً لمستقبل نضمن فيه طعام الأطفال...

كانت التلال من حولنا في الطريق أكبر سعادة وإخضراراً.

والأزهار تبدو على الأغصان أزهى وأكبر حبوراً وانتشاراً..
وأعواد القمح تغني زاهية السنابل إخضلالاً وعنفواناً..
وعيون الماء تصدح نمنمة وغناءً

كان كل ما حولنا ـ في الطريق ـ يهتف بالبهجة والنماء...
سبحان الله
فكأنما حلت على الأرض بركة السماء...».

«تمت»

المقامات

الصفحة

حيرة النفوس في مسألة الفلوس ٧
خيبة الآمال في الحبيب الغالي ١٣
بلوغ الأرب في عقود الذهب ٢١
لسعة الأرباح من سياط الإنفتاح ٣١
التنبؤات اللولبية في الأسواق النقدية ٣٥
حريق الأسياخ في سوق المناخ ٤٥
صيحة المكلوم يوم الإثنين المشؤوم ٥٣
دليل المحتار بين الين والدولار ٦١
آخر اللسعات من سلة العُملات ٧٣
لا خيار للصغار في لعبة الكبار ٧٩
مُرُّ الطعام من مأدبة اللئام ٨٩
أرقى فنون اللصلصة تحت قباء الخصخصة ٩٧
حديث المحار في دفء البحار ١٠٥
عودة الضال إلى عرين الأشبال ١١٥
غزو الأمم بقرارات القمم ١٢٣
حديث السطور يشفي الصدور ١٣١
المال الحلال في ثرى الأجيال ١٤٣
أجود العطاء من فضل السماء ١٥٢

صدر للمؤلف

- التحليل المالي كأداة للرقابة على المؤسسات العامة (رسالة ماجستير). - القاهرة ١٩٧١.
- الكفاية الإنتاجية ووسائل رفعها في الوحدات الإقتصادية - مؤلف مشترك - دار الفكر - دمشق ١٩٧١.
- تقويم أداء النشاط المصرفي الإسلامي (رسالة دكتوراه) - مونبيليه ١٩٨٨.
- المحاسبة الإدارية في مجال الرقابة المالية العليا (مجموعة محاضرات في الدورة التدريبية الأولى في ديوان المحاسبة بدولة الإمارات العربية المتحدة) ١٩٨١.
- الرقابة على نشاط الدعم (البحث الحائز على الجائزة الأولى في مسابقة البحث العلمي الثانية للمجموعة العربية للأجهزة العليا للرقابة المالية والمحاسبة ١٩٨٨.
- دور الرقابة المالية العليا في تنمية القطاع العام والبحث الحائز على المركز الأول في مسابقة البحث العلمي الثالثة للمجموعة العربية للأجهزة العليا للرقابة المالية والمحاسبة - ١٩٩٠.
- القطاع العام.. إلى أين؟ (خواطر حول تخصيص القطاع العام).

دار المكتبي للطباعة والنشر والتوزيع - دمشق ١٩٩٤